إيفانجيلوس أفيروف

مغامرات حمامة تطير كالسهم

تقديم ومراجعة : د. لويس عوض
ترجمة : د. نعيم عطية



من روائع الأدب اليونانى المعاصر

مغامرات
حمامة تطير كالسهم

هذه ترجمة كتاب

Evanghelos Averoff - Tczitsa

الذى صـدر باليونانية عـام ١٩٦٨
بعنوان

حمـائم

وترجم الى الفرنسية بعنوان

فيلوس . . حمامة تطير كالسهم

VELOS PIGEON-FLECHE

مغامرات
حمامة تطير كالسهم

تأليف الكاتب اليونانى الكبير

إيفانجيلوس أفيروف - توسيتسا

مراجعة وتقديم

د. لويس عوض

ترجمة

د. نعيم عطية



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٠

مقدمة

عرفت مصر الأدب اليوناني القديم منذ الثلاثينيات والأربعينيات ثم الخمسينيات من القرن التاسع عشر ، أى منذ ان ترجم رفاعة الطهطاوى وتلامذته بعض الآثار الأدبية اليونانية وبعض الرسائل فى الميثولوجيا اليونانية عن اللغة الفرنسية • وكانت العربية من قبل لا تعرف عن قدماء اليونان الا آثارهم الفلسفية ، ولا سيما آثار أفلاطون وأرسطو وافلوطين ويوفيريوس (فرفريوس) وبعض المراجع التاريخية مثل كتابات المؤرخ اليهودى جوزيفوس الذى نعرف من قراءتنا لابن خلدون أنه كان بين أيدى مثقفى العربية بلغتهم • كذلك عرفت العربية قديما عديدا من الآثار العلمية التى وضعها اليونان القدماء فى الطب والهندسة والعلوم الطبيعية مثل أعمال ابقراط وجالينوس وبطليموس الجغرافى • أما بالنسبة للأدب اليونانى القديم فقد كان فيه من الوثنية ما جعل مثقفى العربية الأوائل يحجمون عن ترجمته ، وان كنا نعرف فتى بن يونس قد ترجم « فن الشعر » لأرسطو فى حدود اجتهاده وأن اسحق بن حنين كان يترنم بأشعار « هوميروس » فى شوارع بغداد •

وفي عصر اسماعيل كانت ترجمة « محمد عثمان جلال » لبعض مسرحيات راسين مثل ((ايفيجينا)) و ((الاسكندر)) مدخلا غير للادب اليوناني القديم وللميثولوجيا اليونانية • ولعل من الهام أن نذكر ان محمد عثمان جلال قد ترجم عن الفرنسية « حكايات ايسوب » في السبعينيات من القرن الماضي • وفي اوائل هذا القرن عرفت العربية صيغة فرنسية من « أوديب ملكا » لسوفوكليس ، تلك التي اشتهر جورج أبيض بتمثيلها بعد عودته من باريس قبيل الحرب العالمية الأولى • وفي العشرينيات من القرن العشرين تقاسم لطفي السيد وطه حسين عبء التعريف بالفكر اليوناني والأدب اليوناني سواء بالترجمة عن الفرنسية او من خلال الدراسات • وكان طه حسين بالذات بين ١٩٢٠ و ١٩٥٠ أكبر معرف بالأدب اليوناني القديم منذ رفاعة الطهطاوي في الفترة المقابلة من القرن الماضي ، كما كان طه حسين أكبر راع للثقافة اليونانية القديمة ، في الجامعة وخارج الجامعة ، عرفته مصر الحديثة • وهو الذي أجج حب اليونان في قلوب تلامذته ومريديه من أبناء جيلي • وقد أثمرت هذه الرعاية بالفعل منذ الأربعينيات من هذا القرن حين ظهرت لأول مرة مدرسة مصرية تضع المعاجم اليونانية مباشرة بدلا من الاستعانة بلغة وسيطة كالفرنسية أو الانجليزية • وهذا لم يمنع طبعا ان بعض عشاق الأدب اليوناني القديم استمروا في الاستعانة باللغات الوسيطة فيما نقلوا من نصوص يونانية قديمة تجنبا للعثار ، على غرار ما كان يفعل لطفي السيد وطه حسين ، لأن معرفتهم باللغة اليونانية القديمة معرفة غير متخصصة •

أما الأدب اليوناني الحديث فله قصة أخرى : فأبناء جيلي لم يعرفوا في الثلاثينيات والأربعينيات غير شعر كفافي Kavafy العظيم وربما شعر كابتيناكيس Kapitanakis الذي كان زميلي في الدراسة ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ في جامعة كامبريدج ومات في شبابه وكنا نتابع معركة العامية والفصحى في اليونان الحديثة التي استفحلت منذ بداية هذا القرن في عالم الدين والأدب والصحافة والتعليم ودواوين الحكومة والمجالس التشريعية وحيثما كتب كاتب أو تحدث خطيب ،

واتخذت أبعاد أساسية واجتماعية خطيرة دفعت بعض المهتمين بها الى مقارنة الحجة بحجة المسدسات . وقد حسمت هذه القضية فى بلاد اليونان ، فليس هناك كاتب له قيمة أدبية ، شاعرا كان أو ناثرا ،الا ويكتب الآن بالعامية ، التي لا تسمى اللغة اليونانية وانما تسمى اللغة « الهلنيستيكا » ، أى الهللينية . ومع ذلك ففى فترة الدكتاتورية العسكرية واستشراء حكم الرجعية بوجه عام تجددت مشكلة اللغة وانحازت السلطة لليونانية الفصحى واضطهدت اليونانية العامية فى كل مجالات التعبير العامة التى تسيطر عليها . ومنذ سقوط الحكم العسكرى عادت الهلينستيكا لغة رسمية للبلاد . أما الأدب الذى لا سلطان للحاكم عليه فقد ظل دائما يكتب بهذه اللغة المفهومة ، لغة الشعب .

وأكبر روائى معاصر عرفه قراء العربية من أدباء اليونان المحدثين هو الروائى الكبير كازانتزاكيس Kazantzakis صاحب « زوربا اليونانى » و « المسيح يعاد صلبه » ، وقد نقلا الى العربية فى الستينيات والسبعينيات ، فوجدا تقديرا كبيرا من قراء العربية .

وقد عرف القارىء العربى أيضا من قصاصى اليونان المعاصرين ايليا فينيزى وبيتروس خاريس وأنطونى ساماراكى وغيرهم ممن ترجم عنهم الدكتور نعيم عطيه فى كتابيه « مختارات من الأدب الحديث فى القصة) (١٩٦٩) و « حلم فتاة (.(١٩٧٨) كما عرف القارىء العربى من الشعراء اليونان المعاصرين صقيليا نوس وأورانيس وانطونيو وساراتناريس وغيرهم ممن ترجم عنهم الدكتور نعيم عطيه فى كتابه « الشعر اليونانى المعاصر » .

واليوم يقدم لنا الدكتور نعيم عطية ، الأديب المعروف والمستشار بمجلس الدولة ، كاتبا معاصرا آخر من كتاب اليونان الحديثة هو ايفا نجيلوس أفيروف Evanghelos Averoff من خلال روايته أو حكايته « فيلوس » Veloce التى يسميها « مذكرات حمامة تنطلق

كالسهم » ، وهي اشبه شيء بحكايات ايسوب Aesop التي تذكرنا بحكايات « كليلة ودمنة » .

وأفيروف يشغل في بلاده مكانا خاصا الى جانب مكانته الأدبية . فهو سياسي معروف ومجاهد قديم ضد حكم النازي ، ومجاهد مستمر ضد الدكتاتورية العسكرية في بلاده وغيرها من بلاد أوروبا . وهو حاليا وزير الدفاع في حكومة كرامانليس . وقد ولي الوزارة اكثر من مرة ، وله اكثر من عشرة كتب ترجم بعضها الى عدة لغات .

وقد ولد أفيروف في بلدة تريكالا باقليم تساليا ببلاد اليونان عام ١٩١٠ ، فهو الآن في السبعين من عمره ، ولكنه أصلا من اقليم يانينا . وقد تخرج في جامعة لوزان في سويسرا وحصل منها على درجة الليسانس في الحقوق وعلى درجة الدكتوراه عام ١٩٣٣ في الاقتصاد ، وكان موضوع رسالته « الاتحاد الجمركي البلقاني » التي نشرت بالفرنسية وقدم لها السياسي الكبير ادوار هريو رئيس الحزب الراديكالي في فرنسا . وفي خلال الحرب اليونانية الايطالية عام ١٩٤٠ كلفته المخابرات اليونانية بمهمة تخريب في البانيا ، ثم عين حاكما لجريرة كورفو . ولكن بعد عام من ذلك اعتقلته السلطات الايطالية وارسلته الى معسكر اعتقال في ايطاليا ، ولكنه لم يلبث ان هرب من المعتقل في سبتمبر ١٩٤٣ وظل مختبئا في ايطاليا يقود حركة يونانيه من حركات المقاومة ، حتى حرر الحلفاء روما من قبضة الفاشيست في صيف ١٩٤٤ .

وبعد الحرب دخل أفيروف معترك السياسة في بلاده فانتخب نائبا عن يانينا في البرلمان اليوناني أكثر من عشرين عاما متصلة بين ١٩٤٦ و ١٩٦٧ ، وبين ١٩٥٦ و ١٩٦٣ عين أفيروف وزيرا جملة مرات : وزيرا للتموين ووزيرا للاقتصاد ووزيرا للزراعة ووزيرا للخارجية . وفي ١٩٦٧ كان وزيرا للزراعة . وعندما حدث الانقلاب العسكري وتولى الجيش السلطة بين ١٩٦٧ و ١٩٧٤ اشتغل افيروف بالكفاح ضد الدكتاتورية العسكرية . وفي أغسطس ١٩٦٧ حكم

عليه بالسجن لمدة خمس سنوات ، ثم صدر العفو عنه ، ولكنه قبض عليه مرة ثانية وسجن لاشتراكه كمستشار سياسى فى تمرد الاسطول فى أبريل ١٩٧٣ • ومنذ سقوط الحكم العسكرى فى ١٩٧٤، وافيروف يشغل منصب وزير الدفاع فى حكومة كونستانتين كرامانليس •

وقد بدأ أفيروف يتجه الى الأدب منذ ١٩٦٣ ، أى بعد أن تجاوز الخمسين ، وذلك اثر سقوط وزارة كرامانلبس الأولى فى تلك السنة، دون أن يفقد اهتمامه بالسياسة • وفى خلال هذه الفترة كتب روايات تاريخية هى « نداء الأرض » (١٩٦٤) ، و « أرض الأحزان » (١٩٦٦) • و « أرض دلف » (١٩٦٨) و « نداء الأرض » التى ترجمت الى الفرنسية عام ١٩٦٨ بعنوان « أرض اليونان تسرد قصة حياة بطل يونانى معاصر وتجاربه فى المقاومة ضد الفاشية والنازية أيام الحرب العالمية الثانية ، فهى نوع من الذكريات الشخصية فى صورة روائية • كذلك كتب افيروف رواية « عندما كانت الآلهة تنسى » (١٩٦٩) ، كتب رواية « عندما كانت الآلهة (١٩٦٩) ، وكتب رواية « عندما كانت الآلهة تبارك » (١٩٧١) ، كما كتب مسرحية اسمها « العودة الى ميكيناى » (١٩٧٣) ، وكتب تاريخا للحرب الأهلية اليونانية التى نشبت بين ١٩٤٦ و ١٩٤٩ بعنوان « النار والبلطة » (١٩٧٤) • أما حكاية « فيلوس » أو « مذكرات حمامة » ، فهى تنتمى الى عام ١٩٦٨ • وقد ترجمت أكثر هذه الأعمال الى الفرنسية والانجليزية •

وحكاية « الحمامة » التى كتبها ايفالجيلوس افيروف ، هى « حدوته » مثل حواديت ايسوب أو لافونتين أو « كليلة ودمنة » يلقى المؤلف الحكمة على لسان الحيوان ، وقد شبهها بعض النقاد الفرنسيين بحدوتة « الأمير الصغير » لسانت اكسوبرى : حمامة من ارستقراطية الطير ، لعلها من الحمام الزاجل ، اسمها فيلوس تخرج من موطنها يانينا لاكتشاف العالم والناس ومعانى الخير والشر وتلقى

لصاحبها ايكار بخلاصة مشاهداتها وتأملاتها فى الحب والسعادة والحرب والسلام والخير والشر الخ ٠٠ فهى « قصة للأطفال من سن الخامسة الى سن الخامسة والسبعين » كما يقول موريس دروون Maurice Druon عضو الأكاديمية الفرنسية فى المقدمة التى كتبها للترجمة الفرنسية لهذه الحكاية ٠

فلعل هذه الترجمة عن أفيروف تكون بداية لمزيد من التعريف فى العربية بالادب اليونانى الحديث ، شعرا ونثرا ، بأدب الثلاثة العظام كازانتزاكيس Kazantzakis الذى توفى فى عام ١٩٥٧ وسيفيريس Seferis وريتسوس Ritsos وغيرهما ممن اعتقلوا أو فروا من اليونان أيام دكتاتورية الكولونيلات ، وبأدب الشاعر الكبير أوديسيوس ايليتى Odysseos Eliti الذى فاز فى العام الماضى بجائزة نوبل للأدب وكذلك الروائى كوستاس تاكتسيس Costas Taktsis ، والروائى مينيس كسوماندارياس ، Menis Xoumandarias

والروائى اريس اليكساندرو Aris Alexandrou الذى يعيش فى باريس منذ ١٩٦٧،والروائى نيكولاس هاتسيس Nicolas Hatzis وذلك دون أن ننسى من جاءوا قبلهم من جيل الثلاثينيات ، مثل الشعراء كافافى Kavafy وأندرياس امبيريكوس Andreas Embiricos ونيكوس انجونوبولوس Nicos Engonopoulos والكاتب السيريالى نيكولاس كالاس Nicolas Calas ،بل ومن جاء قبلهم منذ أوائل القرن مثل الكساندر باليس Alexandre Pallis

أدب لا بأس بخصوبته ، كثير منه مترجم الى الفرنسية والانجليزية ، بدأ يدخل مشارف الأدب العالمى ، ومنه ما احتل بالفعل رقعة فى ساحته ٠

لويس عوض

١

الحمامة والصّقر

يحكى أنه فى العصر المجيد لزيوس ، عندما كانت الروح ، وعلى الأخص على هيئة الحب ، تسود الأرض ، وقع صقر قوى فى غرام حمامة بيضاء فاتنة • كيف وقع فى غرامها ولماذا ، ما كان بامكان أحد ولا حتى سيد آلهة الاغريق ، أن يعرف • كل ما هناك ان حبا جارفا نبت فى قلب ذلك الطائر الجارح الفظ • فمضى يغازل الحمامة البيضاء • كان ما ان يراها خارجة من عشها حتى يهبط فيكاد يلامس الأرض ، ويريها ما يستطيع أن يأتيه جناحاه القويان ، ثم يوجه اليها من بعيد أعذب الكلمات • وباختصار ، سعى بكل الطرق الى أن يدلل لها على حبه •

أول الأمر ، كانت الحمامة تحس بالخوف منه ، وتعمد الى الاختفاء ما ان تراه ، متصورة أنه يريد أن يمسك بها وينشب فيها مخالبه لافتراسها • الا أنها بعد أن لاحظت المرة تلو المرة انه كان بامكانه أن ينقض عليها لكنه كان يحجم عن ذلك ، وتبينت

ملاحقته لها وسمعت كلامه الرقيق ، فهمت فى النهاية . وعندما فهمت راق لها الصقر .

كان شرسا قويا . وما كان يرق الا لها ، كان جد مختلف عن رفيقها الذى يظل راقـدا على البيض عندما تهرع لترى الزهـور والشمس أو لترى ، وهـذا منذ أمد ليس بالبعيد ، الطائر الوسيم . كان الزوج المسكين يكرر كل يوم الحديث عن التوافه ذاتها ؛ عن الغذاء والعش ، عن الحر والبرد . أما الصقر الرشيق فما كان يشير الى مثل هذه المشاغل اليومية ، بل كان يطرق فى حديثه موضوعات أخرى . ما كان ينطق الا بكلمات عذبة ، وان كانت غريبة ، وبعبارات تخلب اللب . كان واضحا ، انه لم يكن يتوانى عن أى شىء يغرى به الحمامة الوديعة .

وعلى المدى الطويل ، لم تعد لديها بطبيعة الحال القدرة على المقـاومة . كانت مسحورة به . وذات يوم ، قبلت أن تذهب للنزهة معه .

قالت له :

ـــ لكننى لا أريد أن يرانا أحد . أين نذهب ؟

أجابها :

ـــ سنصعد عاليا فى السموات . أنت تعرفين كم هى زرقاء هذه السموات .

ـــ أجل ، انها لكذلك . لكنها تملؤنى خوفا .

ــ ولماذا تخافين ؟

ــ لانها رحيبة . رحيبة وغامضة .

ــ وهل تعتقدين ، يا حمامتى الغالية ، ان الأرض صغيرة، واننا نعرف أرجاءها كلها ؟

ــ عشى تحت السقيفة صغير . والأحجار التى أخرج اليها لأنعم بالشمس جد قريبة . والحدائق التى التقط منها غذائى مجاورة . كما انها زاخرة بالزهر والورد .

ــ وهى مليئة بالحسك والشوك أيضا . أما السموات فهى خالية من ذلك .

ــ ولكن ياصقرى المتوحش ، السموات تحتوى على صواعق زيوس !

رد عليها ضاحكا :

ــ ان صواعق زيوس ، لا تبرق الا نادرا . وعندما تبرق فان وميضها يضفى مزيدا من الوضوح على ما يزخر به الفضاء من جمال وشاعرية . وسواء ومضت فى زرقة النهار أو فى سواد الليل فانها تبعث الى العالم برسائل غامضة مكتوبة بأحرف من ذهب . يجدر بك أن تكرهى الحسك والشوك التى لا يصدر عنها وميض ، ولا تنقل أية رسائل .

ــ ربما كنت على حق ، ولكن جناحى أضعف من أن تجابها السماء وصواعقها .

ــــ جناحاى ليسا ضعيفين ، وسأكون بجوارك . سيحميانك انت وحلم حبنا . تعالى : تعالى . يا كنزى الثمين . ذوقى هذا الحب فى حضن الأثير ، ذلك القصيد الأزرق . تعالى ! انه المكان الوحيد فى العالم الذى يليق بهذ الحب الفريد بين صقر قوى وحمامة بيضاء رشيقة . تعالى ، لا تترددى .

ــ اننى أرتعد ، يا صقرى الشجاع . أتردد .

ــــ لا يجب أن تخافى أبدا مما هو جميل ، ولا أن تجزعى عندما يوشك الحلم أن يصبح حقيقة . ان الجمال باتنظارك ، والحلم أيضا . تعالى ، يا كنزى الذهبى !

معا ، فتحا أجنحتهما وطارا . وكيف كان بامكانها أن ترفض أن تتبعه ؟ انه يقودها الى الجنة ، تلك الجنة التى كانت تقنع فى ذلك الحين بتخيلها ، وها هى تكاد تصير بالنسبة لها حقيقة .

راح الصقر يتمهل قدر الامكان فى طيرانه . بينما مضت الحمـــامة تضرب بجناحيها بأقصى سرعتها . وأخـــذا يرسمان بحركتهما دوائر صاعدة حتى وصلا الى ارتفاع جد شاهق .

سألهـــا :

ــــ هل ترين كم هو جميل المنظر من هنا ؟ لم يقع ناظراك على ما هو أبدع قط .

أجابته قائلة :

ـــ انه رائع حقا ، رائع ، لكننى أشعر بالتعب •

تأثر بحبهما زيوس ، الذى كان لا يكاد يفرغ من حب حتى يقع فى حب غيره فأصدر أمره الى سحابة هينة أن تنساب الى جوارهما ، سحابة صغيرة تكاد تتسع لهما ، وتكفى كثافتها لتحملهما •

وسرعان ما لمحت عين الصقر المدربة هذه السحابة ، فقال للحمامة :

ـــ بدلا من أن يرسل زيوس صاعقة ، أرسل اليك سريرا ناصعا • تعالى لتستريحى •

توجهت الحمامة مسرعة الى الفراش الربانى • ولكن ما ان رقدت عليه حتى انقض عليها الصقر بقواه كلها • وقال لها :

ـ ان آلهة الاوليمب يباركون الحب • ولهذا فانهم يهدونك فراش الأحلام • وعلى هذا المرقد الوثير بعيدا عن دمامات الأرض ، وفى احضان هذه القبة الزرقاء قريبا من الشمس الذهبية، أمرت الآلهة أن تصيرى لى •••

لم يكن لدى الحمامة الصغيرة متسع من الوقت كى تدافع عن نفسها أو تعلن اعتراضها • وربما كان التعب قد نال منها وخشيت أن تهوى ساقطة من هذا السرير الضيق الذى منحه لها زيوس • وربما أيضا لم تكن لديها الرغبة فى أن تقاوم •

ما من أحد يعرف ماذا قالته فى أعماقها الداخلية أو ما اذا كانت قد قالت شيئا على الاطلاق • وعلى كل حال أصبحت له ••

ولكن ما ان اطلق الصقر سراحهـا . وأحست بلذة مفاجئة وغير معروفة تجتاح جسمها حتى شعرت الحمامة العفيفة بالخجل. وذلك لأنه على خـلاف ما يجرى بين البشر فان الاخلاص بين الزوجين هو عند الحمام القاعدة السارية •

ويالها من خيانة تلك التى ارتكبتها ! ومع عدو لبنى جنسها، يطارد أقرانها ويفترسهم • الى أين سيقودها هذا الطيش غير المعقول ؟ كيف سيمكنها الحياة بعيدا عن الأمان تحت الأسقف؟ وأى حياة سوف تكون تلك هناك فى الأعالى بين السحب أو على قمم الصخور المقفرة ؟ يا الهى ، ماذا سوف يكون عليه الغد؟

ودون تفكير ، ألقت الحمامة الصغيرة بنفسها فى الفضاء • تذكرت كيف رأت الصقر يهبط من أعالى السماء ، تذكرت النحو الذى يلصق به جناحيه الى جسمه مثل شفرتين من رقائق الصلب ثم يغطس ، ورأسه الى الأمام ، نحو الأرض • لماذا اذن لا تكون بدورها قادرة أن تنزل بالطريقة ذاتها التى ينزل بها هو ؟ سوف يمكنها ذلك •

وغطست ، مستوحية منهجه • وكان هبوطا مدوخا مسكرا ، ولكنه كان أيضا هبوطا عن ثقة •

وفقط عندما رأت نفسها قـد اقتربت من الأرض ، تبينت

فجأة أن القفزة أكثر خطورة مما توقعت • فبسطت جناحيها واستحالت الشفرتان الرهيفتان من جديد الى ريش شامخ ، حركتهما قليلا فى الهواء الفاتر الصاعد من الأرض . وبرفق حطت الحمامة على النجيل الأخضر ، ثم جرت تختبىء فى عتمة عشها الى جوار خلها الوفى الوديع •

وطوال أيام عديدة ، لم تتركه ولم نبتعد من جواره • وراح الطائر الحصيف الذى يراقب أرجاء الناحية بنظرات حذرة ، يحكى لها أن ثمة صقرا غاضبا بدت عليه نوازع الشر جلية يحوم ليل نهار من حولهم • وأكد لها ان الأفضل ملازمة العش حتى لو كان فى ذلك معاناة من ضيق الأنفاس بعض الشىء •

وفى الصباح أبلغها ان الطائر الجارح قد اختفى •

لم يعد الصقر الولهان يظهر فى الأفق ، كما لم يعد أحد يعرف ماذا جرى له •

ولكن منذ ذلك اليوم • سواء بحثا عن طائرها الوسيم ، أو رغبة فى احياء ذكرى حلمها القديم ، مضت الحمامة البيضاء تكثر من مغادرة عشها • صباح مساء ، فى زرقة السماء ، والشمس تدمع على أديمها ، كانت تطير عاليا جدا وتختفى بعض الوقت فى الفضاء كى تنزل بعد ذلك ، كما نزلت من قبل ذلك اليوم المبارك ، يوم أن عرفت الحب الكبير •

لم يكن خلها الأمين يفهم لماذا تعمد الى هذه اللعبة الخطرة،

ولم يكن يحذو حدوها قط • ولا حتى صغارها كانوا يفهمون هذا الذى تقدم عليه أمهم ، وان كان ذلك لم يمنعهم من أن يجربوا معها . وان يشعروا بلذة ما يفعلوه • ربما كان بعض هـؤلاء الصغار من سلالة الصقر • أو ربما على العكس من ذلك أيضا، كانت ومضت الصواعق الربانية والخطر المهدد يجعلهم أشد التصاقا بعشهم المظلم الخانق ولهفة للعودة اليه فينقضون من عليائهم اليه نازلين • ولا حتى زيوس نفسه يمكنه أن يقول فى فى هذا الشأن قولا قاطعا • كل ما كان معروفا ان أولاد تلك الحمامة وأحفادها وأولاد أحفادها يواصلون الرحلة الرومانسية التى كانت تخرج اليها الجدة العاشقة •

ذلك هو أصل اللعبة التى يؤديها « الحمام المنطلق كالسهم » تلك اللعبة اللا معقولة التى لا يعرفها سوى أولئك الذين قضوا بعض الوقت فى مدينة أو قرية من مدن وقرى اليونان الشمالية •

وهذا « الحمام السهم » طيور رشيقة ، طويلة المناقير ، وجناحاها يشبهان شفرتين من رقائق الصلب • يحتفظ بها فى أبراج صغيرة دائما • ولكن عندما تصفو السماء ولا يهطل المطر، يخرجها أصحابها فى الصباح أو المساء • ويدفعونها الى الطيران مشجعين اياها بالصوت والايماء . فتصعد الى ارتفاعات شاهقة فى السماء راسمة فى صعودها حركات لولبية رحيبة • وكثيرا ماترقى الى أبعاد تجعل من الصعب على من يتطلع ناظرا اليها أن يميزها •

وحينما يدعونها فانها تنزل على هيئة انقضاض عمودى فى خط رأسى لا انحراف فيه ولا تعرج .

عديدون هم اولئك الذين فى اليونان الشمالية ، قد حضروا هذا العرض المثير ، الحافل بالحماسة والجسارة والبهجة . لأن الكثيرين هناك يقتنون ويربون حماما من هذه السلالة .

٢

أرستقراطية الحمام

كان اسم أفضل حمامة فى يانينا فيلوس أى السهم ، لنشاطها وسرعتها الفائقة . كان فيلوس يصعد الى أعلى مما يصعد اليه رفاقه ، وكان أسرع منهم فى الهبوط ، كما يلتزم فى هبوطه خطا أكثر عمودية مما يلتزمونه . وكان أكثر رفاقه احتقارا للصقور التى يتجاوزها فى السباق ، ويبزها فى فجائية الانقضاض الحر وسرعته .

كان فيلوس حمامة سوداء وسيمة ممشوقة القوام ، منقاره طويل وساقاه رماديتان شديدتا الحيوية ،عيناه صغيرتان حمراوان تلمعان مثل حجرين من الياقوت .

وكان متيما فى الحق بحب سيده ، السيد ايكار الذى أصبح بفضله بطل هواة الحمام فى ايبيروس .

وذات يوم بدلا من أن يعود فيلوس الى برجه ، نزل من الأعالى وحط على سور قديم من الغاب النخر . بدا على الطائر

عدم الرضى . بل انه وسط الالواح المفككة المبعثرة بدا أيضا مغتما مهدما .

جرى السيد ايكار نحوه وسأله :

ـــ ماذا بك . يا حمامتى الصغيرة ؟

أجابه فيلوس قائلا :

ـــ انى فى غاية الضيق . ويجب أن تقدم لى خدمة كبيرة .

ـــ انى على استعداد لكل ما تطلب ، يا عزيزى .

ـــ سمعت اننا ، معشر الحمام ، لنا ارستقراطية لامعة تعيش فى المدن الكبيرة . وعلى الأخص فى فينيسيا . تحكى حكايات جميلة عن أصلها المجيد ، وحياتها الكريمة وسط القصور الموشاة بالذهب ، محاطة بجموع من المعجبين يتابعونها بانبهار صامتين ! وانى لشديد الفخر بأولئك الرفاق ! ماذا تنتظر منى ؟ انه لعزاء كبير لمن كان من العامة الصغار مثلى أن يعرف ان ثمة ارستقراطية موموقة تتألف ممن تربطهم به وشائج القربى . والآن ، أريدك أن تأخذنى الى فينيسيا كى يجرى التعارف بينى وبين الارستقراطيين من سلالتنا ، وأراهم ولو مرة ، أنا بدورى . انى لمشوق الى ذلك جدا .

أثار السيد ايكار اعتراضات كثيرة . حاول ان يثنى عزيزه فيلوس عن طلبه ، وأصر على الرفض عدة أيام ، لكنه فى النهاية رضخ ، فقد رأى امارات الكآبة تتزايد على طائره .

سافرا معا الى كورفو • ومن هناك أبحرا على السفينة التى تعمل على الخط الملاحى المنتظم • وعندما لاحت لهما فينيسيا ، بسطت الحمامة السوداء جناحيها ، وحطت على أعلى صارية • وراحت الياقوتتان فى عينيها الصغيرتين تبرقان ببضاء أشد • ياله من مشهد ذلك الذى تجلى لفيلوس ! ظن أنه فى حلم •

قنوات مائية على هيئة طـرق • زخـارف رخـامية تزين واجهات المنازل • ابراج أجراس سـامقة تجاور كنائس محلاة بتماثيل ضخمة للعذراء مطلية بالذهب ، ومكسوة بفسيفاء متعددة الالوان • لم تكن هذه المدينة من مدن البشر ، بل كانت من مدائن الاحلام • هكذا بدت • ومن طبيعة الامور ، ان تحيا ارستقراطية الحمام وحدها فى اطار مثل هذا !

وما أن نزلا الى المدينة ، حتى اقترح السيد ايكار ان يستقلا جندولا كى يتمكنا من مشاهدة المدينة •

اعترض فيلوس قائلا :

ــ كلا ، كلا ، خذنى بأسرع ما يمكنك الى ميدان سان مارك ، وعلى وجه التحديد الى قصر الدوج ، فقد قيل لى ان ارستقراطيينا يعيشون هناك •

وعندما وصـلا الى أشهر ميادين فينيسيا ، وقف فيلوس المسكين مبهورا • كل ما استهواه منظره من أعلى الصارية ،

أصبح يتأمله الآن عن كثب باعجاب . اختلط الجمـال بالأناقة وبذخ يفوق التصور .

تابع المشاهد دون كلل ، كما لو كان مسحورا . ولكنه فجأة لمح جماعة من الحمام . حمام بدين ، قـذر ، ثقيل ، يطير ببطء وتخبط من قصر الدوج ويحط على الميدان . رآه يسير ببلادة ، بخطوات متعبة ، ويتمايل يمنة ويسرة بلا رشاقة .

قال فيلوس لنفسه « هؤلاء يبدون متخمين . لعلهم الخدم . سأتوجه اليهم كي أعرف اين أجد ارستقراطيينا » .

اقترب منهم ببضع وثبات قصيرة من ساقيه الرفيعين . وفي تأفف رمقه الحمام هنيهة بغطرسة واحتقار . قال أحـدهم الى جـاره :

ـ لابد انه شحاذ أجنبي . كم هو هزيل ، هذا المسكين !.

تظاهر فيلوس بانه لم يسمع ، وسأل بأدب :

ـ هل يمكنكم . لو سمحتم ، ان تخبروني أين استطيع ان التقي بارستقراطيينا ؟ اني غريب . ولا أعرف هنـا الناس ولا الاماكن .

انفجر الحمام في الضحك ، وأحاطوا به ، وسـألوه فجأة وقد استبد بهم الفضول :

ـ عن أي ارستقراطية تريد ان تتكلم ، أيها الغريب ؟

ـ تلك التى تنحدر عن حمام الدوج !

قهقه الحمام فى صخب • وهز البعض بازدراء اكتافهم المجنحة ، وانصرفوا مصعرى الخدود • أما البعض الآخر فقد بقوا وقد بدا عليهم الميل للتسلية • وقالوا :

ـ ولكن ارستقراطية الحمام التى تطلبها امامك ، أيها الغريب • انها نحن •

بهت فيلوس • وتمتم يقول :

ـ لا تسخروا منى ، أرجوكم •

وقال الآخرون مؤكدين :

ـ نقسم لك بشرفنا ، نحن هذه الارستقراطية •

نطقوا هذه الكلمات بلهجة فخور وصادقة • كان واضحا انهم يقولون الحق •

انقبض قلب فيلوس حتى شعر بالألم • تأملهم جميعا بمزيد من الانتباه واجتاحه اليأس • كانوا جميعا بدينين مترهلين ، وأجنحتهم عاجزة منهكة ، ورقابهم منتفخة •

غمغم سائلا :

ـ ولكن لماذا انتم فى هذه الحالة ؟ كيف يمكن أن تكون هذه حالتكم ؟ كيف يمكن أن تكونوا انتم ارستقراطيينا ؟

هذه المرة ، غضب الآخرون ، وأشار أحدهم الى المكان الذى يحيط بهم بأبنيته المثيرة للاعجاب ، وقال :

ـــ ألا ترى اذن أين نحيا . أيها الصعلوك ، ألا تلاحظ أن الناس يجرون الى هنا من كل أرجاء العالم كى يبدوا لنا الاعجاب، ويتوسلون الينا أن نشرفهم بقبول الغذاء الذى يقدموه لنا ، وهذا يحدث كل يوم ، أتعتقد ان كل هؤلاء الأغنياء كانوا سيتصرفون على هذا النحو ما لم نكن ارستقراطبين أصلاء ؟ اسمع ، أيها الغبى أريد أن أقول لك بايجاز عن أسلوبنا فى الحياة : اننا ننام فى أركان سان مارك المذهبة وزوايا القصر الكبير الذى يذكر بأمجاد الماضى التليد ، ونحن مدعوون على الدوام لتناول الغذاء فى كفوف الزوار الأغنياء الرفيقة ، تتبرز أمام الناس دون أن يعكر صفونا أحد ، فى صميم أجمل ميدان بأوروبا ، عرفت الآن لماذا نعتبر أرستقراطيتكم !

لم يعاود فيلوس الحديث ، تمتم الآخر قائلا أ

ـــ وعلى وجه العموم ... وعلى وجه العموم .. اننا لا نفعل سوى أن نأكل ونغوط وننام !

وقال آخـــر :

ـــ وما الذى نحتاجه فى الحياة غير ذلك ؟

فكر فيلوس لحظة ، بطبيعة الحال ، مادام ان هذه طريقتهم فى تبسيط الأمور والتهوين من شأنها ، فمن الصعب أن يقال لهم

ما هم بحاجة اليه فى هذا الوجود حقا • على انه مضى يستطلع أحوالهم ، فقال :

ــ ولكن ألا تطيرون أبدا ؟

ــ كيف نطير ! اننا نطير كى ننزل من مآوينا وكى نجىء لنأكل كما اننا نطير أيضا كى نعود لنستريح وننام •

ــ والى قمه البرج الرائع لذاك الجرس العالى هناك ألا تصعدون أبدا ؟

ــ نطير الى هذا الارتفاع ؟ هل انت مجنون ؟ تعصف الريح بشدة ، هناك عليا • وما الذى يدعونا أن نذهب لنعرض أنفسنا للرياح ؟ لماذا نرهق أنفسنا بالطيران بعيدا الى هذا الحد ؟

ــ هل أنتم حقا من سلالة حمام الدوج العريق ، جوابى البحار الذين بنوا مدينة الأحلام هذه ؟

ــ ما من شك فى ذلك • انا أنحدر من سلالة فوسكارى ، وصاحب السمو عن يسارى ينحدر من سلالة داندولو • وصاحب السمو عن يمينى ينحدر من سلالة موروسينى •

تأجج فيلوس فجأة ، وسأل :

ــ عن أى سلالة ، قلت ؟

ــ سلالة موروسينى •

ــ ذاك الذى دمر الاكروبول ؟

أجابه الآخر بتسامح متعجرف :

ـــ أيها الأجنبي الهمام ، انك تضيع فى تفاصيل منسية !
ان موروسينى هو قبل كل شىء القائد الأريب الذى هزم الاتراك وأنقذ فينيسيا .

هم فيلوس أن ينقض على ذلك المنحدر عن سلالة موروسينى، ويكيل الطعنات لمدمر البارثينون ، ولكنه تمالك نفسه . وكان السيد ايكار يتبعه من بعيد . وتساءل ماذا بامكانه أن يفعل لو دخل فى شجار مع أفراد هذه الارستقراطية ؟

رمق فيلوس بازدراء الحمام المحيط به ، وهذه المرة ما عادت ياقوتتاه المستديرتان تلمعان فحسب ، بل كانتا تقدحان شررا . دق بمخالبه الصغيرة نبلاط بقوة ، وفتح جناحيه وطار بحمية ، راسما فى اندفاعه خطا منحنيا كبيرا ، ثم حط على قمة برج الأجراس .

رفع الحمام البدين المترهل رأسه ، وراح يتابعه بنظراته . وما عاد بامكانه أن يسترد هدوءه .

ـــ ما الذى يجرى ؟

وفجأة .. فجأة .. ما الذى يعنيه هذا المشـهد المخيف ؟ الرأس ممدودة الى الامام ، الجناحان مطويان ، والحمامة النحيلة السوداء تترك نفسها تهوى عموديا على أرض الميدان .

ستبد الذعر بجماعة الحمام ، فتحت أجنحتها ، وباندفاعة واحدة هرولت تختبىء تحت بواكى قصر الدوج .

ـــ لابد أنه ينتمي الى أبراج حمـــام المواطن بونابرت ٠ ولا شك أنه جاء لابادتنا ٠

راحوا يختبئون فى أغوار الردهات المطلية بالذهب ، التى يطل منها تاريخ طويل وعريق ٠

لكن لم تكن لدى فيلوس أدنى رغبة فى قتلهم ٠ حط عند قدمى السيد ايكار وقال له بلهجة جافة :

ـــ فلنرحل من هنا ٠

ـــ تترك فينيسيا ؟ بهذه السرعة ؟

ـــأجل ، وبأسرع وقت ٠

ـــ لماذا ؟

ـــ لا توجه الى الاسئلة ، من فضلك ٠ فلنسافر الى لندن ٠

ـــ الى لندن ؟ هل جننت ؟

ـــ كلا ٠ لنا هناك ارستقراطية مختارة ٠ أريد أن أتعرف عليها ٠ يجب ان أفعل ذلك ٠ وستقودنى انت الى هناك ٠

بعد ثلاثة أيام ، وصلا الى لندن ، حيث توجها فورا الى ميدان الطرف الأغر ٠

ومن نظرة واحدة فهم فيلوس ان الحمام الموجـــود هناك لا يختلف فى شىء عن الحمـــام البـــدين المترهـــل الذى رآه فى فينيسيا ٠ ذات المظهر ، امارات التأفف والغطرسة البادية ،كل ذلك جعله يستنتج انه بازاء ارستقراطيى الشمال ٠

هل من أجل هؤلاء جاء من بعيد ، وقطع كل هذه الشقة ؟ ولم يوجه اليهم حتى كلمة واحدة .

اشاح بوجهه حتى لا يلمح السيد ايكار يأسه ، وتلفت حوله . تزايد قلقه . كان المكان محاطا بأبنية كئيبة . وفى وسطها عامود شاهق بلا أدنى رشاقة ، أسود أعزل . لكن قلب فيلوس ما لبث ان اهتز فرحا عندما رأى على قمته تمثال نيلسون !

نسى الارستقراطية التى جاء من أجلها . بسط جناحيه . وطار فى خط رأسى ارتفع عاليا الى التمثال وحط الى جواره حيث ظل ساكنا يرفرف بجناحيه القويين ، وقال :

ــ أيها الاميرال المظفر ، انا من أهل الجبال الشامخة ، لكن وطنى أيضا وطن بحارة أشداء . ولهذا فاننى أحس بسعادة كبيرة اذ أراك عن قرب ، وقد زينت صدرك النياشين العديدة ..

وفد اليه صوت نيلسون جافا ، وقال :

ــ أيها المضحك التعس . تبدو راغبا فى المداعبة . تتظاهر بأنك لا ترى ، أو انك لا تعرف ان هذه التى تغطينى ليست نياشين بل هى اتلافات احدثها بى بنو جلدتك . وها انت بدورك جئت تلعب اللعبة ذاتها ، ايها السوقى ! اداق برازك ، وارحل . دعنى مستريحا فى وحدتى .

صاح فيلوس بصوت يفيض بالصدق :

ــ اقسم لك . أيها الاميرال المبجل انني لم آت من أجــل ذلك ؛ اقسم لك ! انني غريب ، ولم أكن أعرف ...

زق صوت نيلسون ، وقال :

ــ انك ثابت فى مكانك لا تهتز . كيف تحتفظ بتوازنك ، حقا ؟ لكنك تقف امام عينى التى فقدتها فى الحرب . تعال الى الناحية الاخرى أمام عينى السليمة كى أراك !

وعندما تبينه جيدا ، حملق فيه بعينيه الوحيدة ، وسأله :

ــ لكن بالله قل لى ، هل أنت حمامة ؟

ــ حمامة أطير كالسهم ، يا سيدى الاميرال .

ــ ماذا يعنى هذا ؟ حمامة حقيقية أنت ؟

ــ حقيقية ، يا سيدى الاميرال . لكن نحن الحمام الذى نطير كالسهم . نحن .. كيف يمكننى ان أوضح لك ؟ نحن نحيا حياة مختلفة ، ندرب على حياة مختلفة عن حياة سائر الحمام .

ــ ماذا تعنى بذلك ؟ اشرح لى ! لكنك لابد قد تعبت من وقفتك الصامدة هذه ، كأنك جندى على أهبة الاســتعداد . أستند الى كتفى وانت تحكى لى .

ــ انا ، الحمامة المتواضعة التافهة الآتية من بلد البحارة ، كيف أجرؤ على أن أستند الى كتفك . يا سيدى الاميرال ؟ هذا محال ؛ اننــا نعرف كيف نحترم من يستحقون الاحترام . ثم

انتى نست تعبا على الاطلاق • الامر لا يعـدو أن يكون لعبة سهلة بالنسبة لى • اما انت فستمنحنى الشرف حقا بالاستماع لى وانا احكى عن حياتى • هل يثير اهتمامك مثل هذا الحديث ، حقـا ؟

أغمض نيلسون عينه الوحيدة برهة ، وقد اختلجت نظرته بطيف حلم أو عاطفة عابرة • ثم قال :

ــ فى حياتى الفاترة التى أحياها اليوم ، لا يعنينى حديثك عن حياتك فحسب ، بـل أنه يجلب الى نسمة طلاوة عاطرة • تكلم • قدم تقريرك • وكلى آذان صاغية •

بحماس ، مضى فيلوس يحكى كيف انه وأقرانه فى يانينا يتنافسون على التحليق بأعلى قمم الجبال ، وكيف أنهم يفلتون من الصقور ، وكيف يحيون فى الابراج يتناقشون حول طلعاتهم السابقة ويحضرون لطلعاتهم القادمة ، كى يبلغوا الكمال فى كل مرة • وبتحفظ أيضا أضاف فيلوس أنه بطل الطيران فى يانينا •

تحركت ظلال الشـوق الى المـاضى فى عينى الاميرال • وقـال :

ــ حياة جميلة للغاية ، ولعبة رائعة • ولكن اذا كانت صعبة، وخطرة ، فلماذا تلعبونها ؟ وبالأخص ، لماذا تلعبونها كل يوم ؟ ما بغيتكم ؟

ــ لا نبغى شيئا •• نلعبها حبا فى الشجاعة ذاتها ، أيهـا

الاميرال المظفر . وهــل ثمة حاجة الى هدف آخر غير ان نكون شجعانا ، وان نحاول ان نكون فى طليعة الشجعان ؟

خيم صمت ، لم يعد يسمع اثناءه سوى خفقات جناحى الحمامة التى بدأت ترتعش . لماذا لزم نيلسون السكوت ، ولم يعد ينبس بكلمة ؟ هل قال فيلوس أية حماقة ؟ هل خيب ظن ذئب البحار الشهير ؟

وبعد برهة سأله الاميرال :

ــ وماذا جئت تفعل هنا ؟

أجاب فيلوس مترددا :

ــ استبدت بى الرغبة ان أعرف ارستقراطية الحمام . هذا ما دفعنى الى المجىء . وقد ذهبت من قبل الى فينيسيا أيضا .

قال نيلسون بلهجة جادة :

ــ اســمع ، أيهــا الطائر الوسيم . سارع بالعودة الى يانين . وأنى لمتأكد أنه فى ابراجها المتواضعة ارستقراطية جديدة على وشك أن تولد .

شد محارب البحار قامته النحيلة ، ودب فيه النشــــاط والانتعاش . طبع فيلوس قبلة على يد الرجل الشهير ، ثم هبط عموديا وجاء يقف أمام السيد ايكار ، الذى بدأ يقلق ، وقال له بلهجة متفكرة :

ـ أفهم ما تحس به ، يا حمامتى الصغيرة . لابد ان ظنك قد خاب كثيرا . لكننى سآخذك الآن الى اثينا . هناك أيضا للحمام ارستقراطية تغدو وتروح طوال النهار حول مبنى مجلس النواب، بصحبة الارستقراطية اليونانية ، اعنى ، بصحبة رجال السياسة اليونانية . سآخذك الى هناك كى تتعرف على هؤلاء أيضا . لا أريد أن أراك حزينا .

حجل فيلوس مرحا على مخالبه ، ولمعت ياقوتتاه بأبهى لمعانها ورفع منقاره الرمادى المديد نحو السيد ايكار . وقال له:

ـ لست حزينا على الاطلاق . لكننى وحق السماء ، لا أريد ان اذهب الى أثينا . كفانى ما رأيت من ارستقراطية .. فلنعجل بالعودة الى يانينا . ولنسارع باستئناف ألعابنا . عندما لا يعرف المرء قيمة ما لديه ، يضرب هنا وهناك جريا وراء شىء جديد ، شىء مثير . أما الآن ، فانى أعرف ماذا لدى . هيا ، تعال ، وسترى كم سأطير أيضا أفضل من ذى قبل .

٣

مع الناس والزهر

كان اليوم يوم أحد . لم تكن بالسماء أية سحب ، ولا كانت تهب أية نسمة . وفى يانينا ، كما لو كان الامر متفقا عليه — وربما كان متفقا عليه فعلا — يطلق اصحاب الحمام جميعا وفى الساعة ذاتها حمامهم قبل ان يذهبوا الى الكنيسة .

ومن كل ناحية فى المدينة ، من المرتفعات المكسوة الى البحيرة ، كانت أسراب الحمام تنطلق الى السماء مثل السهام . وكانت تشكل سحبا صغيرة مفعمة بحركات نزوانة ، وتخط دوائر صاعدة تتمركز حول برج أو آخر من الابراج .

وكان بامكان أهل المدينة ان يخمنوا تبعا للموقع الذى كان يتصاعد فيه كل سرب ، الى من ينتمى هذا السرب أو ذاك . ولكن بالنسبة لحمام السيد ايكار لم يكن الامر يحتاج الى تخمين ، فقد كان من المعروف ان اسرابه تصعد فى اجواز الفضاء الى أعلى مما تصعد اليه اسراب الآخرين كلهم كما ان حمامه

أكثر الحمام قدرة على العودة الى الأرض فى هبوط عمودى .
كما كان أهل البلد يعرفون ان على القمة بل وأيضا أعلى من بقية السرب كله ثمة حمامة سوداء تعوز على الدوام ، بقصب السبق فى ايبروس قاطبة ، وهـذه الحمامة هى فيلوس ، الذى طبقت شهرته الآفاق .

وفى ذاك اليوم من أيام الآحاد ، حقق حمام السيد ايكار وعلى الأخص فيلوس طيرانا فائق الامتياز . دخلت أسرابه فى مباراة مع سائر اسراب الحمام فى المدينة ، وبذلت قصـارى جهدها ، حتى انتزعت نصرا مبينا مما جعل ايكار يزهو فرحا .

وعندما هبطت اسرابه ، لاحظ ان فيلوس على الرغم من انه احرز البطولة مرة أخـرى ذلك اليوم ،الا أنه لم يكن ينعم ببشاشته المعهودة . فلم يأت ، مثل كل صباح الى جواره يتناول وجبته ويرفع رأسه الصغير بين الفينة والفينة ليصوب نظراته الى عينيه أو يتقافز من حـوله سعيدا على مخالبه الدقيقة رمادية اللون والتى لا يهدأ لها قرار . وبعد ان التقط بضـع حبات حط على السور . سرح ببصره يرنو الى المدينة والبحيرة والجبال وقد خيمت عليه الكآبة .

قال السيد ايكار لنفسه « هذا اللئيم يريد شيئا » واقترب منه يسأله فأجابه فيلوس :

ــ أجل ، أريدك ان تسدى الى خدمة أخـرى . وانت تعرف كم هى نادرة الخدمات التى أطلبها .

فكر السيد ايكار ، وقال محدثا نفسه « هيه ، هذا الماكر الصغير لديه شيء على جانب من الأهمية سيطلبه مني » .

ــ هذا صحيح ، انت على حق . اذن ، ماذا ترغب ؟

ــ ارغب في اجازة .

ــ اجازة ؟ لكنه طلب غير مألوف هذا الذي تطلبه مني !

ــ اعرف ذلك جيدا . لا يروق لي سوى ما هو خارج عن المألوف . ما من شيء له قيمة في الحياة سوى هذا الخارج عن المألوف .

حاول السيد ايكار ان يثنيه عن مشروعه . أوضح له المخاطر التي سوف يتعرض لها اذا سافر وحده . ورد على حججه التي أثارها . لكن فيلوس ظل على موقفه لا يلين . كان يريد أن يمنح اجازة بضعة أيام ، كي يسافر بمفرده ويكتشف العالم .

كان السيد ايكار يحب بطله . ويعرف انه قادر على أن يذود عن نفسه كل الاخطار وحده . كما يعرف فيه الوفاء ورجاحة العقل . لم يكن يشك انه سيعود ، وانه لو رفض طلبه فسوف يسبب له ذلك ألما كبيرا . ماذا كان بامكانه ان يفعل اذن الا ان يعطيه بعض النصائح ويصرح له بالاجازة ؟

تغير حال فيلوس ما أن تلقى الموافقة . ومن شدة الفرح راح يقفز على السور من خشبة الى أخرى . وطار محوما فوق

المكان أكثر من مرة ثم حط على كتف سيده اليسرى • شكره ثم استأنف طيرانه •

لم يكن قد وضع لرحلته برنامجا • قرر فحسب ان يتجول ويتنزه . وان يرى ما لم يسبق له رؤيته • ان يتأمل ويلاحظ كل ما سيعرض له • ومادام فى يانينا فسوف يزور اولا المدينة التى ارتبط بها وجوده وان كان لا يعرفها الا من حالق •

وكى يبدأ تعرفه على المدينة ، سوف يذهب الى « القلعة » القديمة الشامخة التى كان آخر سادتها وكان ذلك منذ قــرن ونصف من الزمان على باشـا الوالى التركى الرهيب • وقال فيلوس لنفســه :

« لو كان على قيد الحياة حتى اليوم لما جرؤت على الذهاب الى هناك ، دون ادنى شك • فقد كان هذا الوحش يقتل لغير ما سبب » •

وصـــل فيلوس الى القلعة • ودار دورتين سريعتين فوق أسوارها العالية السميكة • ولم يساوره شك فى مبلغ ضخامة هذا المبنى العتيد • وقال لنفسه :

« حسنا ، كم من بيوت ، وكم من ابراج ، كان بالامكان ان تشيد بحجارة هذه الاسوار عظيمة الحجم ! كم من حمائم وكم من بشر كان بالامكان ان يصبحوا كائنات سعيدة لو استحالت هذه الحوائط المرعبة الى بيوت هادئة • لابد أنهم مجانين أولئك الناس الذين يشيدون اسوارا مثل هذه ! لابد أنهم مجانين •• » •

ابتعـد ، وذهب يحلـق فوق الحى المختنق المكوم بين الاسوار . أزقته ضيقة لكنها آية فى النظافة والجمال والهدوء .. وقـد راقت له كثيرا . ولكن الذى انتزع أكثر الاعجـاب منه الصخرتان الوعرتان عند الطرف القصى من البحيرة ، وعلى كل منهما جامع ذو مئذنة قديمة . وهناك استقر فيلوس قليلا .

ولكن بينما كان يستريح مستغرقا فى الأحـلام فى تجويف بالصخر ، سمع جلبة غريبة .. وأحس بشىء يمر به مثل السهم ، مصحوبا بصفير عجيب . أدهشه الأمر ، اذ لم يسمع هذا الصوت من قبل ، لكنه لم يعره التفاتا .

على ان الصوت ما لبث ان تكرر مـرة ثانية ، ثم ثالثة ، بينما حركت نفحة من الهواء لوهلة خاطفة بعضا من ريشه .

انه لأمر شاذ ! ماذا يمكن ان يكون هذا ؟

شدته أصوات أطفال من حيرته .

صاح أحدهم :

ــ لقد مسسته ! لقد مسسته !

وصاح آخر :

ــ لقد مسسته ، لكنك لم تصل الى شىء . فلنطلق عليه جميعا .

ــ كيف نطلق عليه جميعا ، أيهـا الأغبياء ! ومنذا الذى

سيمسك به اذا ما وقع ؟ سأطلق عليه مرتين أخريين ، ما دمت اكبركم سنا ، وأؤكد لكم اننى سأقتله • انتظروا • ها أنا أحكم التصويب عليه •

التفت فيلوس ، مذهولا • رأى جماعة من الأطفال يمسكون نبالا وقد شد أحدهم نبلته وصوبها نحوه • أنطلقت منها حصاة صغيرة ، صفرت عند أذنه ، وارتطمت بجناحه فى قوة • قل لنفسه :

« يريدون أن يصرعونى لغير ما سبب • انهم قتلة • ويجب ان أكون حكيما » • فتح جناحيه وطار فى الهواء • دار دورة سريعة فوق الأولاد ، فرآهم على وشك ان يتشاجروا ، وسمعهم يعنفون أكبرهم سنا ، قائلين :

ـ أنه خطؤك • لو كنت تركتنا نطلق النبال جميعا معا ، كنا أصبنا منه مقتلا ، وما كان قد أفلت منا •

لم يعد فيلوس أدراجه • كانوا صغارا ، ومع ذلك كانوا قساة ! كان بالامكان ان يتوقع منهم ان يكونوا أرق عواطف من الكبار • ولكنهم أيضا ، وهذا حق ، أطفال لا يفهمون ماذا يفعلون • الأفضل عدم الانشغال بأمرهم الآن ، والذهاب لرؤية البشر الكبار •

بدت له الفكرة صائبة • سوف يذهب ليتسكع فى أزقة حى القلعة •

كم كان كل شيء جميلا هنا ! الأفنية المزهرة البيضــــاء ، والبلاط المحاط بخطوط الجير ، كل شيء معتنى به ، هادىء ، ومنعم بالحب . انها لمشعة بالضياء ، حياة البشر .

أحس فيلوس بنفسه سعيدا ، بل وسعيدا جدا . خيل له انه يشاطر البشر وجودهم . لم يكن يطير ، بل كان يتجول فى الأزقة، أو بعبارة أدق ، كان يلهو بالقفز من بلاطة الى بلاطة . صمم ان يصل الى نهاية الزقاق دون ان يضع مخلبه على الفجوات ، وسائرا على الجانب الأيسر من كل بلاطة . لماذا ؟ للاشيء . لمجرد اللعب . مجرد نزوة .

مضى فيلوس هكذا قدما ، سعيدا ، خلى البــال . على أنه سرعان ما كفت اللعبة عن أن تسليه . تناهت الى سمعه همهمات غريبة : فوق رأسه انفتحت نوافذ : استحوذ عليه قلق ما . لقد نبهه السيد ايكار أكثر من مرة الى الاخطار التى تنتشر فى طريق الحياة بين البشر . هل كانت ثمة مكيدة تحاك له ؟

كانت تنقصه الحصافة ، لم يأخذ حذره من هذه الهمهمات . كان يجب ان يكون أكثر تنبها لما يجرى . ولكن البشر على أى حال يجهلون أنه يفهم لغتهم .

لذلك فتح فيلوس عينيه الياقوتيتين ، وأرهف أذنه ، ارتعد لما سمع . رجال ونســـاء اتكأوا بمرافقهم الى النوافذ وراحوا يتكلمون عنه . بدوا كأنهم يتآمرون عليه !

قالت احدى النسوة :

ــ توقف . انه الآن تحت نافذتك تماما ، يا ابو سطولى. اخبطه على رأسه .

أجاب رجل من نافذة مواجهة :

ــ ولماذا نخبطه على رأسه ؟ مادام لم يطر كل هذا الوقت ، فلا بد انه جريح . فلنمسكه .

صاحت امرأة أخرى :

ــ كلا ! كلا ! سوف يفلت منا !

ــ فليلزم كل منكم مكانه . وأنت يا ابو سطولى ، هيا ، افعل ما قلته لك !

لم يكن فيلوس يشعر بالخوف ، ولكنه كان حانقا .

وبغيظ دق البلاطة بمخالبه الصغيرة . ثم قفز الى البلاطة التالية ، ملتزما على الدوام الجانب الايسر . ومن حسن الحظ أنه قفز . فحيث كان يقف منذ وهلة هوى حجر ارتطم بالأرض وتحطم الى مئات القطع . ولو ظل فيلوس هناك للقى حتفه .

ودون ان يضيع وقتا ، خفق بجناحيه ، وطار عاليا الى قبة السماء . ولكنه التقط مع ذلك وهو يبتعد أصوات الصائحين . كان الجميع يأسون لتركهم الحمامة تفلت من قبضتهم ، وراحوا يلقون على ابو سطولى باللائمة لانه لم يكن حريصا وضيع الفرصة من بين أيديهم .

تنكر فيلوس وقال لنفسه « ماتعلمته من كتب التاريخ يشوبه الخطأ • لابد ان على باشا الرهيب لازال واليا على هذه البقاع • ومع ذلك ، فليس ذلك ممكنا • فقد مضى على موته العديد من السنوات ! اذن ، ان روحه هى التى تواصل السيادة هنا ! • • ومع ذلك ، فاليوم يوم أحد ، والناس ذاهبون الى الكنيسة أو عائدون منها • ومع ان روح المسيح هى التى يجب أن تلهمهم • ها هم جميعا لا تحركهم سوى شهوة واحدة ، شهوة القتل • يا للتعاسة! » •

حانقا ومستاء ، انطلق فيلوس توا نحو البحيرة • ومالبث الطيران فوق المياه زمردية اللون أن ادخل السكينة الى نفسه •

وعلى الرغم من أنه وجد هناك الهدوء الذى يطمئن اليه القلب الا انه غير رأيه سريعا • فهو لم يأخذ اجازة ليبحث عن الهدوء ، ويتأمل من عليائه المناظر الساكنة • بل طلب الاجازة ليكتشف العالم •

الى اين يتجه ؟ كان لابد ان يفكر • كان قد وصل الى الجزيرة الرشيقة الصغيرة التى تبزغ وسط البحيرة • وأمامه عند سفح جبل الميتسيكلى تدفق بسخاء نبع دامبراندوفا • والى جانبه سمقت أشجاره العالية الضخمة التى كثيرا ما لمحها من السماء • على واحدة من هذه الاشجار سيذهب ويحط ليقرر خط سيره •

فى تلك اللحظة نزل الجبل ثلاثة رجال مزمعين الجلوس فى

أحدى المقاهى . كانوا يمسكون فى أيديهم أشياء غريبة من الخشب والحديد الأسود ، طويلة ، رفيعة ولها ثقوب فى طرف من اطرافها. أكانت هذه أسلحة ؟ بنادق ، كما يسمونها ؟

كان أحد الرجال يصخب ويسب ، يلعن يومه . لم يفهم فيلوس السبب الذى جعل هذا الرجل دائب التجديف . لكنه سرعان ما فهم عندما حط على غصن قريب ، وأمسك به بين مخالبه ، أدرك حقيقة الأمر عندما سمع الحديث .

قال أحد الرجال :

ــ فليأخذنا الشيطان ! ضيعنا يوم الأحد هذا سدى . تعبت اقدامنا ولم نرق قطرة دم واحدة .

استطرد ذلك الذى كان دائب اللعان قائلا :

ــ تقول قطرة واحدة . اننا لم نطلق حتى رصاصة واحدة .

تدخل الثالث ، وفى مضاء البرق قال :

ــ سنفعل الآن ما لم نفعله طوال يومنا . وسيكون ذلك انتقاما لما ضاع علينا .

وبحركة سريعة ، اسند آلته الغريبة الى كتفه وصوبها نحو فيلوس :

صاح فيه الثانى :

ــ كلا ، كلا ، أنه فيلوس حمامة ايكار .

ولكن قبل أن يتم عبارته ، كان الآخر قد أطلق النار • ولغير ما سبب معروف أخطأ الهدف ، وانطلقت الرصاصة تنتزع بعض من زغب فيلوس • استبد الغضب بمطلق النار والتفت الى من تعرف على الطائر . وصرخ فى وجهه :

ــ فلتذهب الى الجحيم • أضعت على طلقتنى • هل أنت صياد أم تعنى بتربية الحمام ؟

أجابه الآخر

ــ سوف يكون الامر خســـارة لو كنت قتلته • انه بطل ابيروس •

ــ بطل ! أى كلام هذا الذى تصدع به رؤوسنا ؟ هــل تعتقد اننى سأكترث بهرائك هذا ؟ اننى اهتم قبل كل شىء بالنحو الذى سأناله به •

وبحركة فجائية مثل سابقتيها اطلق النار من جديد على فيلوس الذى كان قد فتح جناحيه وطار توا • ولما كان اتخذ لطيرانه خطا متعرجا حتى يتفادى أغصان شجر السرو فقد أخطأته الرصاصة هذه المرة أيضا •

ولكن ما الخطب ! الكبار والصغار ، الرجال والنساء ، كل البشر لا يفكرون الا فى القتل ؟ هل هذا حال الانسانية جمعاء ؟ فهم فيلوس الآن لماذا تنشب الحروب • انها تقــوم لا كما يدعى السيد ايكار لمســائل تتعلق بالحدود والمستعمرات والاقليات بل لأن الانسان ــ ربما دون ان يتنبه الى ذلك ــ مخلوق دموى،

يتلذذ بمغامرات القتل . ان هذا ولا شك هو السبب فيما ينشب من معارك . منذ ثلاثة آلاف عام ، لا يكف البشر عن الاقتتال . انهم يتثقفون ، يبنون امبراطوريات ، يعتنقون الديانات ، وعلى الرغم من كل شيء . فانهم يشنون الحروب على الدوام ، ويقتتلون .

ومهما كان الخطب . فان تسول لبعض أهل ابيروس ان يقتلوا بطلها فيلوس الفائز فى كل سباق ، لمجرد متعة اراقة الدماء فهذا أمر يفوق الحد .. وسوف يثبت لهم ذلك . ان بنادقهم ما عدت تخيفه . وما دام قد تنبه الى مرادهم فسيعرف كيف يفلت منهم بفضل سرعة طيرانه .

عندما وصل الى ارتفاع شاهق توقف ثم اندفع نحو الارض منقضا فى خط عمودى ، وفوق رؤوس الصيادين راح يرفرف بجناحيه .

صاح فيهم :

ـ عار عليكم ! عار عليكم ان تريدوا قتلى ! عار عليكم ، يا عصابة القتلة !

تجمد الصيادون فى أماكنهم ذعرا لا لأنهم يرون حمامة استبد بها الغضب الى هذا الحد ، بل ولانهم يسمعونها تتكلم بصوت انسانى . ولكن أشد الثلاثة قسوة ، ذلك الذى أطلق النار ، استرد رباطة جأشه سريعا ، وأجاب بلهجة عنيفة :

ــ اتعرف ، أيتها البهيمة القذرة ، الى من توجه شتائمك ؟ اتعرف من أنا ؟

صاح فيه فيلوس :

ــ قاتل بلا ضمير ، هذا أنت !

ــ انا قاتل بلا ضمير ! أولا أنا هو أنا ! وثانيا أنا مواطن اتبع النظام ! اننى اقتل طبقا للقانون !

انتزع ورقة من جيبه ، ومدها الى فيلوس :

ــ لدى تصريح بالصيد ، يا سيد .

ثم استطرد يقول بذات اللهجة الحانقة :

ــ اطلع على هذا . افحص الاختام ، والتوقيعات . لا شىء ناقص . الدولة ترخص لى بالقتل ، الحكومة ، الوزارة المختصة ، الجميع !

كان الدور على فيلوس ان يجفل مذعورا . هكذا تجرى الامور اذن عند البشر ! استدار نحو الآخرين ، وسألهما عما اذا كانا يحملان مثل هذه الاوراق .

أجاباه وهما يفتشان فى جيوبهما :

ــ بكل تأكيد . ماذا تظن ؟ نحن ، نقتل وفقا للقانون . خذ ، الق نظرة على ترخيصينا .

صاح بهما :

ـ لا داعى لذلك • كلا ، كلا . • فهمت الآن أخلاق البشر • لا جدوى من النقاش • ليس ثمة اجابة •

هم فيلوس بالابتعاد ، لكنه ظل فى مكانه • وتعبيرا عن غضبه واشمئزازه • استباح لنفسه ، وهو أكثر الطيور كياسة ، فعلا لا ينتظر من مثله •

وقال للصيادين الثلاثة :

ـ لقد أخطأت • لن اناقشكم ، بالطبع ، ولكن اسمحوا لى ان اجيبكم باجابة واحدة ، ولا اجابة غيرها . •

دنق برازه على بنادقهم الموضوعة على منضدة المقهى • وبينما احمرت وجوههم سخطا فراحوا يقذفون الشتائم ، اندفع طائرا نحو قمة الجبل •

لا شك انه رأى أكثر من مرة جبل الميتسيسكيلى ، لكنه كان على الدوام من بعيد • فلم يأت حتى هنا قط . • بدا الجبل وقد غطته الصخور خشنا وحشيا • ذهب ليراه الآن عن كثب • كان يبدو من قبل اثناء طيرانه اليومى كخلفية للوحة ، ولكن عليه الآن ان يستكشف قمته وسفوحه •

كم كان المنظر قاحلا وموحشا !

يقال ان الجبل فى الازمان الغابرة كان مغطى بغابة كثيفة ، ولكن على باشا اللعين اقتلعها ، خشية ان تستخدم مخبأ للفدائيين يشنون منها غاراتهم على يانينا وهى جد قريبة •

اندثرت الغابة الآن ، وظلت التربة فى أغلبها جرداء عارية . كستها أحجار مدببة لا تحصى ، بزغت فى بعض ارجائها بضع حزم من حشائش عجفاء . واحتضنت تجاويف الصخر الوعر رقع ضيقة من الأرض نبتت فيها حشائش أكثر كثافة ، وبعض الحسك ، وأحيانا بعض الزهور أيضا .

فكر فيلوس لحظة ان يحط فى احدى هذه التجاويف ، لكنه فضل ان يستجلى السفوح التى كان يلمحها من حالق كل يوم : عندما كان يخرج مع رفاقه فى تدريباتهم الخارقة . وقف على طرف صخرة ، وبنظرته جاب المنحدر . كان المنظر ، ولا شك جميلا ، ولكنه كان قد شبع من مثل هذه المناظر . ومن ثم استدار الى التجويف الصغير الأجرد المجدب . نبت هناك وحيدا هادئا زنبق من زنابق الحقول ، أرجوانى اللون محلى بنقطة ذهبية فى أسفل كأسه ذى الخطوط البيضاء . راح الزنبق يتمايل خلى البال على ساق متينة ورشيقة تزينها أوراق خضراء رقيقة لامعة .

الى جوار هذا الزنبق وقفت شجرة ورد برية لم تتح لها التربة الفقيرة ونقص الرطوبة بهذا المنحدر ان تنبت سوى وردة واحدة ، لكنها كانت وردة رائعة ، بلون الأفق ساعة الفجر ، ولقاح قلبها أشبه بيدار من ذهب . ومع ذلك : كانت خجول الطلعة .

بقفزة واحدة ، وجد فيلوس نفسه بين الزهرتين .

قالت الوردة :

ـ أهلا بك فى بيتنا ، يا طائرى الوسيم .

أجابها فيلوس بأدب :

ـ معذرة . كان يجب ان اقدم نفسى . أنا حمامة ، واسمى فيلوس .

قال الزنبق :

ـ لنا الشرف ، يا سيد فيلوس .

أجابت الحمامة :

ـ انى سعيدة ، اذ لى شرف التعرف بكما .. أجل . انكما على غاية .. على غاية .. كيف اعبر عن نفسى ؟ .. على غاية من الأدب والظرف ، انتما الاثنتان . ولكن خبراتى كيف يمكنكما الحياة فى مكان مقفر مثل هذا ؟ كيف تقضيان الشتاء هنا ؟ ألا تفضلان سهل يانينا ، الخصيب ، أو حتى المدينة ؟

خيل لفيلوس ان الزنبق والوردة يتبادلان نظرات كلها رقة، ويبتسمان . ثم قالت الزهرة الاولى :

ـ فى هذا المكان المبارك ، يا سيد فيلوس ، متحررين من الهموم والمخاوف ، نستمتع بالوجود وبحبنا .. لاشك ، ان الشتاء على هذا الارتفاع الشاهق قاس . ولكننا فى فصل الشتاء ننزل الى حيث جذورنا ، متشابكى الأيدى . وفى حضن الأرض ، بصحبة ذكرياتنا وآمالنا ننتظر الربيع والصيف . لا تعتقد ، يا سيد فيلوس ان هذه الحياة الشتوية ليس لها مباهجها بدورها . فكثيرا ما يكون انتظار لحظة جميلة أحلى

من تلك اللحظة ذاتها . كما ان تلك اللحظة تأتى أيضا . فنخرج الى الشمس . يرى كل منا الآخر ، نتحاب ، ونحتفل بالزواج .

وقالت الوردة سائلة :

ـ هل تعرف من الذى يزوجنا كل عام ؟ النحلة . أجل النحلة . أنها توحد بيننا عندما تصنع من قبلتنا عسلها . هل يمكنك ان تتصور ذلك ؟ فى قبلاتنا من الحلاوة ما يجعل منهما عسلا .

واستطرد الزنبق يقول :

ـ كفى ، يا عزيزتى . يجب الاحتفاظ باسرارنا لأنفسنا . لكنك قلت أيضا يا سيد فيلوس . أنه كان الاجدر بنا ان تنبت بالقرب من المدينة أو عند سهل يانينا الثرى . ياللسموات ! فى تلك الحقول الخصبة هناك ، يشق المحراث اخاديده فى الارض ليبدر فيها القمح ، والطماطم . والبصل ، وسائر الخضروات . لا أقول أن هذه ليست ضرورية . ولكن زراعتها بهدف نفعى بحت . ولهذا فان نصل المحراث البارد لن يتردد فى ان يجتثنا ، نحن الذين لا نحيا الا من أجل الجمال والحب . ولهذا فلا يناسبنا سوى الارض المجدبة على المرتفعات المشمسة . أما عن المدينة ، فسيسارع أهلها الى قطفنا ، وسنلفظ بعد يوم أو يومين مجروحين أنفاسنا . ولن يكون عزاء لنا أن تتعذب فى اناء ولو كان تحفة فنية دقيقة الصنع . وأخيرا ، وصفت هذا المكان بأنه قفر .

لكن ماذا يعنى القفر سوى الجفاف والقنوط ؟ اننـا هنا نزهر ونشعر بالسعادة • لسنا اذن فى قفر • أنه بيتنا • أنه بالنسبة لنا مركز الكون • ولن أرضى بديلا عنه أى مكـان آخـر فى الوجـــود •

وقالت الوردة مؤكدة :

ـ أوه ، كلا • ليس لهذا المكان بديل فى الوجود • اننـا نسكن أرض الأحلام !

صاح فيلوس فى غمرة من الحماس :

ـ بكل تأكيد ، بكل تأكيد • وأنتما أيضـا مخلوقان من مخلوقات الأحلام • اننى أشعر نحوكما من الحب ما يجعلنى أتألم لمجرد التفكير فى ان افارقكما •

سألت الوردة بلهجة شاكية :

ـ ولكن لماذا تفارقنا ؟

وأضاف الزنبق :

ـ كلا ، كلا ، لا ترحل • نحن بدورنا أحببناك كثيرا •

قالت الوردة :

ـ فلنبحث حولنا ، لعلنا نجد بضع حبوب لضيفنا • اننـا لم نقدم لك شيئا •

ـ قدمتما ماهو جوهرى •

ـ ماذا قدمنا لك ؟

ـ رمز الحب والجمال والأصالة • كانت هذه هديتكما • وليس ما هو أثمن منها •

أوضح لهما فيلوس أنه يبدأ أجازته ، وان وقته محدود • وبعد ان تبادلوا أقوال المجاملة ، قبل باحترام ورقة فى هيئة يد مدتها شجرة الورد اليه • ثم لوح جناحه الايمن للزنبق ، وصعد نحو دروب فى السماء غير مطروقة •

شعر بأنه متحرر ومليء بالحماس والسعادة •

وفكر قائلا « يا لها من صورة متناقضة تماما لما رأيت فى البشر • والحق انه لولا ان منهم أيضـــا أولئك الذين يعنون بتربيتنا ، وفى مقدمتهم السيد ايكار : فاننى ما كنت أعود الى البشر بعد ما رأيته اليوم منهم • ولكن أولئك الذين يربوننـا قوم طيبون ، يرفعون أبصارهم الى السماء ويعلموننا الاقـدام والشهامة • أما الآخرون •• »

وعندما مرت بخاطره ذكراهم ، استبد به الغضب من جديد• خفق جناحيه بقوة ، وانطلق متجاوزا قمة جبـل الميتسيكيلى • لاح من تحته طيفه • رأى ، وفهم • كلا ، ليس هذا سرابا • ان الارض بدورها تنمحى •

٤

زيارة إلى كوكب آخر

مضى فيلوس فى طيرانه . كان يزداد علوا كلما أوغل فى المسير . ولكن ما الذى حدث له ؟ كيف يحس بنفسه خفيفا الى هذا الحد ؟ لم تعد جناحاه هما اللتان تحملانه ، بل تيار من نوع ما . ربما كانت احدى تلك الآلات الغامضة التى حدثه عنها السيد ايكار أخذته فى فلكها ؟

أكانت صاروخا أم كوكبا ؟ ولكن الى أين يتجه ؟ الى أين سيقوده هذا التيار المجنون ؟ أى مغامرة هو فى طريقه الى ان يعيشها ؟ كان يصعد .. يصعد بسرعة متزايدة . وأحس بالدوار .

« آه يا عزيزى الغالى السيد ايكار ، ستعتقد اننى خدعتك وأفلت هاربا . ولكن يا أخوتى الاعزاء ، يا من لم تتركوا ابراجكم الوديعة .. »

توقفت تأملاته الحزينة هنا ، اذ وجد ساقيه تستقران على

ارض صلبة • أين هو اذن ؟ تلفت برأسه الصغيرة • أحس بذهنه أكثر صفاء ونظر من حوله •

راحت مخلوقات غريبة تتفحصه وتتناقش من حوله• مخلوقات غريبة ؛ جد غريبة ، تشبه حمائم ضخمة الحجم ، ولكنها ذوات رؤوس آدمية متناسقة القسمات • لم ير من قبل مثل هذه الحمائم البشرية قط •

ولا رأى أيضا مناظر مثل تلك التى تحيط بهم • كان الامـر خرافيا ! لا شيء سـوى حـدائق تفيض بزهور منوعة الالوان تتوسطها هنا وهناك منازل جذابة • ولكنها كانت زهورا وأشجارا ومنازل لم ير مثلها قط •

يا لها من مغامرة بالغة الغرابة ! أى مكان يمكن ان يكون هذا ! استجمع كل حواسه ؛ لاحظ انه يفهم لغة هذه المخلوقات• كانت لغة الحمام ! ولكن الكلمات الاولى التى سمعها منهم كانت جد مثيرة للاهتمام حتى أنه قرر أن يتركهم يعتقدون أنه لا يفهمها• سيتيح له ذلك أيضا ان يتبين أى مكان قاده اليه القدر •

وكان أول ما عرف انه هبط على كوكب آخـر • ولكن ما اكتشفه من نواياهم لم يكن مطمئنا على الاطلاق •

قال واحد من الحمام البشرى :

ـ يا اخوانى ، لقد فحصناه بما فيه الكفاية ، واننا لنضيع وقتنا • اننا متأكدون أنه قادم من الكرة الارضـية • ونعرف

أيضا ما تضمره الكرة الارضية من نوايا عدوانية لنا وللكواكب الأخرى ان أهل الارض لم يرسلوه لنا بقصـــد حسن • فلنبدأ باستجوابه ، اذن • واذا لم يجب فلنستخدم ما يجب من وسائل لاكراهه على ذلك •• ومن الممكن ان يكشف هذا الاستجواب كثيرا من النقاط التى لا زالت خافية علينا •

حدث فيلوس نفسه قائلا « يا للشقاء ! لا يكفى اننى تركت يانينا • ماذا أقول ؟ يانينا •• بل تركت الكرة الارضية كلها • لم يكن فى ذلك الكفاية • بل كتب على أيضا ان أورط فى السياسة الكونية والصراع بين الكواكب ، ان أدفع الى أعمال التجسس واضحى عميلا مزدوجا ، ان يزج بى فى خدمة لجنة نزع السلاح، بل وربما أيضا فى خدمة الامم المتحدة بأسرها ؛ أى فى خدمة كل مصادر سوء التفاهم بين القوى المتصارعة على الارض : بل — ويا لشقائى — بينها وبين القوى الفضائية • أواه : يا لشقائى• آه ! يا عزيزى الغالى السيد ايكار كم كنت على حق ! »

فى هـــذه الاثناء كان الحمام البشرى قد أدلوا بتأييدهم لذلك الذى أخـذ على عاتقه حمله على الكلام • فمضى معلنا :

— لنر أى لغة يتحدث •

وضعوا أمامه جهازا صغيرا • ضغطوا على أحد الازرار ، فسأله الجهاز بالانجليزية :

ــ هل تتحدث الانجليزية ؟

لم يفتح فيلوس فمه بكلمه .

ــ هل تتحدث الصينية ؟

لزم فيلوس الصمت .

مضى الجهاز يسأله بالاسبانية :

ــ هل تتحدث الاسبانية ؟

وراح الطائر يتلقى ساكنا السؤال ذاته الذى تتابع بالفرنسية والروسية والالمانية والبرتغالية والبولندية والتركية ، وفى النهاية بلغات محلية غير مألوفة لم يسمع فيلوس كلمة واحدة منها من قبل ، مثل البنغالية وغيرها .

أما اليونانية ، فأنهم لم يذكروها قط .

على ان الجهاز سأل أخيرا :

ــ ربما تتحدث الرومانية ، أو الصربية ، أو الهولندية ، أو البلغارية أو الألبانية ، أو ربما تتحدث لغة من اللغات الافريقية أو الاسيوية أو اللغة البولينيزية ؟

لم يطق فيلوس أكثر من ذلك . بلغ صبره منتهاه . انفجر قائلا بلهجة يونانية خالصة :

ــ أنى أتحدث اليونانية . أى أسلوب هذا الذى تتبعونه ، أيها السادة ؟ كيف أضعتم وقتكم تسألوننى بلغات ثانوية ؟ وكيف

تجرؤون ان تضعوا اليونانية على ذات المستوى وهذه اللغات ضئيلة القيمة ؟

تبادل الحمام البشرى النظرات ، وربما تبادلوا الابتسامات أيضا ، أجاب أحدهم بلغتهم • فترجم الجهاز أجابته ترجمة فورية:

ــ اننا نعتد فى ترتيب اسئلتنا بالمقام الذى يوليه علم اللغات لكل لغة ، أو بعبارة أخرى تبعا لأهميتها الكمية •

وازاء هذا القول تأجج فيلوس وطنية • أى كلام هذا الذى يقولونه ؟ يدعون ان وضع اليونانية فى المقام الأخير راجع لاعتبارات احصائية .• بعد البرتغالية ، بل ، وبعد التركية ! أوجب عليه حبه لليونان ان يعطيهم درسا • فقال لهم :

ــ اعلموا ، أيها السادة ، ان اليونانية هى لغة شعب مختار بين كل الشعوب التى يتألف منها الجنس البشرى • أنها لغة أكثر الناس شهامة ونبلا • لغة الامة الهلينية المجيدة • اجل ، اعلموا أنه بفضل اشراقات الهلينية على العالم بأسره ، صارت اليونانية اللغة الوحيدة المتحدث بها فى أرجاء المعمورة كلها • وأعلموا أيضا أنها اللغة الوحيدة التى ليست لغة واحدة بل ثلاث لغات:فهناك لغة الصفوة ، واللغة الشعبية ، واللغة العامية •• وكل من هذه لها تفريعات بدورها • اننى لا ابالغ فيما أقوله أبدا ، أيها السادة • وبعبارة موجزة ، أعلموا أن لغتنا لديها ما يكفى لتتفوق كميا•• ولاعتبارات شعرية فانها أكثر اللغات بلاغة واتساقا • أنها أهم لغات الأرض قاطبة !

تبادل مستمعوه النظرات والابتسامات من جــديد • وقال أحدهم بلغتهم :

ــ له كل خصائص أهل الارض • وربما تبدو فيه هــــذه الخصائص بشكل بارز أيضا •

امتلأ فيلوس ازاء هذه الكلمات غرورا وقال لنفسه « ما الذى يظنه هؤلاء ؟ لقنتهم درسا ، وأى درس ! أليس كذلك ؟ لقــــد فهموا ماذا تعنى اليونان وماذا يمثل اليونانيون من قيم ! » •

على أنه لم يتح له وقت لينعم بالغبطة ، اذ أن أشد أفراد الجماعة صرامة ، ذلك الذى بدا عليه أنه رئيسهم ، قطب حاجبيه وقــال :

ــــ هيا ، لنبدأ استجوابه • ولا تضيع وقتنا فى ملاحظات تافهة • جهزوا آلات التعذيب •

ارتجف قلب فيلوس الرقيق • لقــد أدى واجبه كوطنى • بالكلمات فحسب ، لا ريب فى ذلك ، لكن هذا ما يجب ان يفعله الناس جميعا • ومادام يشعر ضميره الوطنى بالارتياح ، فليرتجف الآن قلبه باطمئنان •

وكما فى كل مرة ، كان الحمام البشرى يوجه اليه الخطاب ، والجهاز المترجم هو الذى يسأله :

ــ لماذا ارسلوك ؟

تمتم فيلوس قائلا :

ـ جئت من تلقاء نفسى ٠

ـ حذار ، أيها الطائر الاحمق ! احترس لنفسك ٠ اذا كنت تكذب ؛ فسوف تندم على ذلك ٠

ـ أقول لكم الحقيقة ٠ جئت من تلقاء نفسى ٠

ـ ولماذا جئت ؟

ـ جئت بلا نوايا ٠ هكذا ؛ صدفة ٠

ـ صدفة : انجزت هذه الرحلة الطويلة المحفوفة بالمخاطر ؟

ـ صدفة ٠ أقسم على ذلك بجناحى ، أيها السادة المبجلون ٠

راحوا الآن يتشاورون فيما بينهم :

ـ يحاول المراوغة ٠

ـ يحاول ان يخدعنا ٠

ـ رحلته الينا تخفى مخططا سريا ٠

ـ ان بلوغه هنا قرينة على تهديد قريب لكوكبنا ٠ ربما كان نذيرا لأحداث فظيعة ٠ بسرعة ، امسكوا آلات التعذيب ٠ لابد من معرفة كل شيء ٠

لم يكن فيلوس المسكين يتصور ان بالامكان ان يشكل وحده خطرا على كوكب بأسره ٠ ولكن هؤلاء المخلوقات الغريبة يعتبرونه كذلك ! ويتحدثون عن التعذيب ٠ أوه ! يا للشقاء ! يا للعنة !

احسن الحظ ، لم يكن يبدو على الرئيس انه يشاطر الآخرين رأيهم • وقال :

ــ انتظروا • ان اجاباته ولا شك مريبة ، ولكن نبراته توحى بالصدق • وفى ساعتى لم يتحرك عقرب الكذب • فلنعاود الحديث معــه •

استدار نحو فيلوس ، وقال له :

ــ حسنا • انى أصدقك • لكننى احتاج الى ايضــاحات• كيف نجحت فى الوصول الى هنا ؟

آه ، يا الهى ! بماذا يجيب ؟ وهل يعرف هو نفسه كيف وصل الى هنا ؟ انهم لن يصدقوه أبدا • هذه هى المأساة • اذن ، ماذا يقول ، سوى الحقيقة ؟

لذلك ، فقد روى ما جرى له واختتم قوله بهذه الكلمات .

ــ كنت أجهل ، ولا زلت أجهل طبيعة هذا القرص • أصبت بالذعر ورحت أقول لنفسى « حسبى ألا يكون هذا القرص الذى يقودنى منطلقا من احدى هذه الصواريخ أو الاقمار الصناعية اللعينة ! » كان ذلك مجرد افتراض • ولا أعرف على الاطلاق ما اذا كان صحيحا •

داخلت وجوه مستمعيه السكينة ، ونمت عن اهتمام أكبر •

ــ ولماذا تصفها باللعينة ، هذه الصواريخ والاقمار ؟

ـ لأن السيد ايكار يصفها بذلك .

ـ ومن السيد ايكار ؟

ـ سيدى ، أكثر أهل يانينا جدارة بالاحترام .

ـ وما يانينا هذه ؟

خرج فيلوس عن طوره من جديد ، لكنه شعر بأنه أكثر اطمئنانا الآن ، فقد رأى من حوله وجوها أكثر مودة ، وخيل اليه ان بامكانه أن يثور . أيجرؤ هؤلاء القوم ان يتساءلوا عن يانينا !

ـ انها مدينة ، يا سادة ، أجمل المدن اليونانية . عاصمة ايبروس ، أكثر الاقاليم اشراقا . ان يانينا ، أيها السادة ، كما تقول احدى أغانينا « هى الطليعة فى الحروب والآداب والثراء . هل يجوز لكم بعد ذلك ألا تعرفوها ؟

ابتسم الحمام البشرى ابتسامة اشفاق . سألهم فيلوس بلهجة معاتبة :

ـ لماذا تبتسمون ، أيها السادة ؟ يعتبر الكثيرون يانينا أرقى من أثينا ذاتها .

سأل الرئيس مرددا :

ـ أثينا ؟ أثينا ؟ وما أثينا هذه ؟

انكب الرئيس على جهاز صغير يحمله على صدره ، وأصدر أمره :

ــ ابحثوا فى قاموس المائه مجلد ما أثينا هذه ؟

ولم تمض لحظة واحدة حتى أجاب الجهاز قائلا :

ـــ قاموس المائدة مجلد . الجزء الثامن صفحة ١٢٣٥٨٠ .

أثينا : مدينة من مدن الأرض . (راجع القاموس) هى وأوروشليم هما المدينتان الوحيدتان اللتان أعطيتا لهذا الكوكب التافه حضارة سامية . ومع ذلك فهى غارقة فى النوم منذ ألفى عام . الأرض: واحدة ن أصغر كواكب المجموعة الشمسية (راجع القاموس) المجموعة الشمسية : احـــدى المجموعـــات الكوكبية الســـبعة والعشرين التى تتألف منها المجرة (راجع القاموس) .

كان فيلوس على وشك الانفجار والافصـــــاح لهم عن فهمه للغتهم . ولكنه أحجم عن ذلك .

ففى هذه الاثناء انكب الرئيس من جديد على الجهاز الصغير. وقـــال :

ـــ حسنا . كفى . ارجعوا الآن الى ملحق العشرة أجزاء الذى صدر العام الماضى .

أجاب الجهاز الصغير :

ـــ رجعنـــا تلقائيـــا الى الملحـــق . وهو لا يذكر أثينا ولا أورشليم . لابد أن هاتين المدينتين دمرتا أو فقدتا أمجـــادهما القديمة .

استدار الرئيس نحو الآخرين . وقال :

ـــ ليس من الأهمية أن يقارن هذا العصفور يانينا باحدى المدينتين الوحيدتين اللتين يذكرهما قاموس المائة جزء من مدائن الأرض لابد أنها مدينة جديرة بالاحترام •

ألقى نظرة الى ساعته :

ـــ يؤكد العقرب الصدق على الدوام • فلنواصل معه •

التفت الى فيلوس وسأله :

ـــ خبرنا يا صديقى من فضلك ، لماذا يقول السيد ايكار ان هذه الاقمار والصواريخ لعينة ؟

ـــ لا أعرف ، يا سيدى •

ـــ كيف ؟ ألم يوضح لك الأمر قط ؟ ألم تسمعه يدلى بالمزيد عن هذا الموضوع ؟

ـــ كلا ، أو ربما فعل • مرة أو مرتين ، سمعته يعلن ان كل هذا ليس سوى نقود ضائعة •

صاحوا جميعا فرحين :

ـــ نقود ضائعة !

سأله الرئيس الذى بدا عليه الود الشديد :

ـــ ألم يقل شيئا آخر ؟ ألم تسمعه يقول شيئا آخر ؟

ـــ كلا ، لم يقل غير ذلك •

ـــ قل لى أيضا ، يا صديقى ، هل يوجد على الارض رجال

آخرين يعتبرون ان ما ينفق على الصـــــواريخ والاقمار نقودا ضـــــائعة ؟

أدرك فيلوس ان الرد بالايجاب ســـــوف يستثير اهتمامهم ويكسبه عطفهم . ولكن ماذا يقول بالضبط لارضائهم ؟ ظل بضع لحظات يفكر . ثم قال فى النهاية :

ـــ لا أدرى . نحن الحمام المنطلق كالسهم لا نسافر كثيرا ولا نجوب الأرض الا لماما . ولكن الذى أنا متأكد منه أن كل أصحاب أبراج الحمام فى يانينا يشتركون فى اعتناق هذا الرأى . ويتمسكون باننا نحن الحمام المنطلق كالسهم الصواريخ الوحيد الجديرة بالاعتبار .

ـــ وما الحمام المنطلق كالسهم . اذن ؟

أخذ فيلوس يشرح حقيقة سلالته ومآثرها . واذ رأى عيون مستمعيه تجحظ ووجوهم تضىء اندفع فى حماس الى امتداح الحياة التى تحياها سلالته والحب الذى يوليه أصحاب الأبراج للحمام الذى يربونه .

وعندما فرغ من حديثه ، صاح أحدهم :

ـــ مستحيل ! مستحيل ! انه يمارس علينا ألاعيب الجاسوسية بأبرع مما نتصور . انهم يعرفون رياضتنا المفضلة ، وحتى يخدعونا

أرسلوا الينا هذا الطائر الذى كلفوه بأن يعلن لنا أنهم يمارسون هذه الرياضة ، هم أيضا •

وبعد أن رجع الرئيس الى ساعته أدلى بملاحظته قائلا :

ـــ ولكن الابرة على الدوام تشير الى أنه صادق •

رد عليه الآخر :

ـــ من المحتمل أن تكون ساعتك أصابها عطب • اذ هل يعقل أن يكون أهل الأرض الماديين المتعطشين للحروب من المثـالية ورجاحة العقل أن يبتدعوا رياضة مهذبة باسلة مثل رياضتنا ، وان يكرسوا لها جهودهم كل يوم ؟

شاطره بعض الآخرين رأيه قائلين :

ـــ انه محق فيما يقول •

لكن رئيسهم أوقفهم بايماءة حاسمة ، وقال :

ـــ لا تتسرعوا فى أحكامكم ، أيها الاخوة • لدى وسيلة أكثر جزما بما اذا كان يقول الحقيقة من ساعتى التى لا تخطىء •

استدار نحو فيلوس • وقال له من خلال الجهاز المترجم :

ـــ أصغ الى ، يا صغيرى • هذه الرياضة التى قلت لنا انك تمارسها ، نمارسها نحن أيضا هنا • بل وتأخذ ممارسة هـذه الرياضة عندنا شكل الاحتفال ، اذ لا يشارك فيها سوى أكثر

المختارين استحقاقا للتقدير ، وهم أولئك الذين بحبهم للنظـام وبسالتهم يثبتون فينا ارادة الكمال •

تمالك فيلوس نفسه • فى لندن ابهر أميرال الاسطول برياضتهم • وهنا ، على كوكب تزدهر فيه حضارة أسمى ، أحال سكانه ممارسة هذه الرياضة الى احتفال مهيب • انه اذن لحدث جليل •

أحس فى الوقت ذاته بالفخر والدهشة • وقال :

ـــ لحظة واحدة من فضلكم • تبدون لى أصحاب رأى وحصافة • بل ان بعضكم يبدون من القادة • خبرونى اذن كيف يمكنكم أن تقولوا ان الافضل وحدهم يشاركون فى هذا الاحتفال ؟

تفرس رئيس الحمام البشرى فى وجهه بطيبة مختلطة بأنفة• ثم قال له :

ـــ لقد وصلنا فى الواقع الى درجة من الحكمة ، وكثيرون بيننا بلغوا وفقا لقوانيننا الديمقراطية الى مرتبة القادة المحليين ، ولكن ما قيمة أى حكيم أو ممثل للشعب اذا ما قورن بمن هم شعار الأمة ؟ ان الدور الذى يؤديه هؤلاء القدوة الملهمون أهم ألف مرة من الادوار التى يؤديها غيرهم ، ولكن هذا الدور ليس لدينا جميعا الصفات المطلوبة لتحقيقه • بعضنا أجنحته لا تقوى على طيران مثل هذا ، وبعضنا لا يرقى فكرة الى المستوى اللائق لأداء كل حركة بالدقة المتطلبة ، وبعضنا يعوزه الاحساس بالتنظيم،

فلا يصلح لنشاط بهذا الكمال . ولكن ايضاحاتي هذه أبعدتني عما أريد أن أقترحه عليك . اسمع ، انك تدعى انك تمارس هذه الرياضة بدورك على قشرة الجوز الضائعة تلك التي يســمونها الأرض . والآن ما رأيك ، هل تقبل أن تؤدى انطلاقة طيران مع فريق من فرقنا ؟

تقافز فيلوس على مخالبه العصبية الصغيرة بلون الرماد . وأجاب جذلا :

ـــ وكيف لا أريد ؟ انى أوافق ، بلا شك على اقتراحك .

لكنه ما لبث أن اغتم قليلا . ربمــا ســيبدو أمامهم مثيرا للسخرية . وعندئذ ، ممن سيضحكون ؟ لقد صرح لهم بأنه بطل ايبروس العريقة . انهم سيضحكون اذن من ايبروس ذاتها !

فاستدرك يقول خجلا :

ـــ ولكن تعرفون اننى أصغر منكم حجما ، ومتعب أيضا ومتوتر قليلا . لذلك من الأفضل ألا أقيس نفسى بكم .

وبنشوة انتصار قال ذلك المتشكك دائما :

ـــ أرأيتم ، أرأيتم ؟

لكن الرئيس لم يعره أى اكتراث ، وقال لفيلوس :

ـــ لا يهم كل ذلك الذى تقول . نريد فحسب أن نرى كيف تطير . هيا ، تعال .

مد اليه أحد جناحيه • وأمسك كل منهما الآخر من ريشــه ومضيا ، ومن خلفهما الآخرون ، حتى وصــلوا الى برج للحمام شاهق مشيد من الرخام الموشى • خرج اليهم فريق من الحمام بشرى الهيئة انتقى أفراده من الصــفوة الممتازة • كانت قاماتهم أكثر ارتفاعا ، وأجسامهم أكثر قــوة • ويبدون أيضــا أكثر اعتزازا بأنفسهم ، كأنهم نسور فتية • حياهم الآخرون ، وهم القــادة المحليون ، باحترام ، ثم أعطوهم الاشارة •

انطلق الفريق فى الطيران • كانوا يضربون الهواء بأجنحتهم فى تناسق محكم • وعندما شرعوا يؤدون حركة لولبية صاعدة ظل شكل الفريق متماسكا • أما القادة المحليون فراحوا يتابعونهم بلا حراك ، وبنظرات مليئة بالاعجــاب • وبين الفينة والفينة ، كانت تند منهم صيحات تنم عن حماسهم •

ابتهج فيلوس بدوره، ولكن لسبب مختلف• انهم لن يسخروا من بطل ايبروس ! ربما كان هؤلاء أفضل منه تدريبا ، وسيطرة على حركاتهم ، ولكنهم أكثر ثقلا منه • ولن يستطيعوا أن يلحقوا به أبدا •

قطع الرئيس حبل تفكيره ، قائلا :

ـــ تراهم • ترى هؤلاء الذين يتجسم فيهم مثلنا الأعلى • ماذا تنتظر لتلحق بهم ؟

قال الشكاك :

ـــ وكيف يلحق هذا الكذاب بهم . انه يتردد كثيرا .

رمقه فيلوس مزدريا . تقافز مرتين أو ثلاثا فى مكانه . ثم طار فى خط عمودى نحو الفريق الذى كان قد بلغ ارتفـاعا جـديرا بالاعتبار . وقد اتسع لفيلوس الوقت كى يسمع بعض صيحات الاعجاب ، ولكنه سمعها على عجل شديد ، لأنه وهو يبذل قصارى جهده صعد بسرعة فائقة عاليا جدا . وقد التصق ريشه بجسده الصغير المنتصب مثل سهم . ومضى جناحاه اللذان يشبهان صفحتين من الصلب يضربان الهواء بكل ما وسعه من حيوية وسرعة .

لم ينس انه انما يتسابق على بطولة كبيرة . وهو فى هـذا السباق يمثل على كوكب آخر كل حمام الأرض وراح يقول لنفسه « خفقا يا جناحى ! خفقا بسرعة ومضاء ! لم أعد فيلوس التابع للسيد ايكار ، بل أنا ابيروس ، أنا اليونان كلها ! ها أنا أسبق المتسابقين معى ! انتصرت عليهم ! خلفتهم ورائى بمسافة بعيدة ! خفقا ، يا جناحى ، اصـعدا بى الى أعلى ! دائما الى أعلى ! دورانى أكثر احكاما ، وأكثر ارتقاء ! الى أعلى دائمـا ! الى الامام دائما ! انى اشحذ قواى كلها ! » .

وعندما دقت اشارة العودة ، تبين ان المسـافة التى قطعها ضعف المسافة التى قطعها ذاك الفريق الفائق فى تدريبه وأحكامه . كان هذا نصرا عظيما . ولكن الفريق الآن أكثر منه انخفاضـا وربما سبقه فى الهبوط . وهذا لن يسمح به أبدا !

اندفع فيلوس نازلا • وأثناء ما كان الفريق يغير اتجاهه ويعد العدة للهبوط محافظا على تماسكه المحكم ، بسط فيلوس جناحيه الى منتهاهما ، محيلا اياهما الى نصلين فولاذيين ، وقد مد رأسه الى الأمام وسحب كتفيه الى الخلف ، وراح يشـق الهواء فى اتجاه الأرض • وكان فيلوس يتقافز على الأرض ، عندما جـاء الفريق المنافس يحط الى جـواره • رفع أعضـاء الفريق جميعا أجنحتهم اليمنى الى جباههم واصطفوا يحيون البطل الفائز •

حرك فيلوس جناحه الأيمن مؤديا التحية بدوره ، اذ لم يكن يعرف ماذا يفعل ولا ماذا يقول كى يكسو انتصـاره بمسحة من التواضع • ولكن الحمام البشرى الذين لم يشتركوا فى الطيران سهلوا مهمته • فقد اقتربوا من الفريق الذى ضم صفوة أبطالهم، وباحترام قالوا لهم :

ــ لقد حققتم مرة أخرى طيرانا ممتازا • واننا لنشكركم • واذا كان هذا الطائر الصغير أسرع منكم ، فان روحنا الرياضية تحتم علينـا أن نعترف بذلك • ولكنكم على كل الأحوال كنتم رائعين • وهذا هو المهم • وبالاضافة الى ذلك ، فان طلعة الطيران هذه قد أعطتنا دليلا على غاية من الأهمية •

سأل أعضاء الفريق قائلين :

ــ أى دليل تقصدون ؟

ــ الدليل على أننا لا نخشى شيئا من جانب الكرة الأرضية•

ــ وكيف ذلك ؟

ــ الأمر على غاية من البساطة . كان الثابت لنا من قبل أن على تلك الكرة مجانين ومتعطشين الى سفك الدماء . ولكن اليوم تيقنا أن هناك مثاليين أيضا . وما داموا يوجدون ، فهم الذين سيكتب لهم الغلبة فى النهاية ، لأن المثل العليا قوة لا تقهر .

وبعــد انصراف الفريق ، تجمع الآخرون محيطين بفيلوس معبرين له عن اعجابهم بكلمات تقدير حارة .

وقال لهم فيلوس :

ــ لو كنت أحسنت الفهم ، أيها السادة ، فانكم تشعرون نحو الكرة الأرضية بالخوف والاحتقار . لماذا اذن هذا الشعور ؟

أجابه الرئيس قائلا :

ــ ليس لأهلها فى نظرنا أى قيمة . الأرض كوكب عديم الأهمية ضــمن مجموعة من الكواكب الصــغيرة التى نعتبرها مسكونة وهذه عددها ١٣٥٠٠٠٠٠ كوكبا . ما قيمة الكرة الأرضية اذن ؟ على أننا لاحظنا هذه السنوات الأخيرة قيام أهــل الأرض برحلات غريبة فى أرجاء الكون . أثار ذلك فضولنا . وبوسائلنا ــ وهى وسائل تفوق حتى أحلامكم ــ درسنا تاريخ تلك الكرة مليا . ولم نجد لذلك التاريخ أى مسار منطقى ، على الاطلاق . ان سكانها المنشقين الى آلاف المعسكرات المتعادية ، لم يكفوا طوال عصور عديدة عن الحرب والتناحر . واليوم ، يعانى مئات

الآلاف منهم البؤس الشديد ، حتى أن كثيرين منهم يموتون جوعاً.
ليس على الكرة الأرضية أي تقدم علمي ، أو ان شئنا الدقة هناك القليل جدا من ذلك التقدم.

قال فيلوس معترضا :

ــ كيف تقولون ذلك ! لدينا في اليونان علماء مبرزين. وأطباء يانينا ومحاموها ذائعو الصيت.

ــ يانينا ! اليونان ! اننا نتكلم بجدية، ياصديقي. فلاتجعلني أضحك : تقول علماء مبرزين. على الأرض مرض يفترس أهلها ــ يطلقون عليه السرطان ــ وكان من الأجدر أن يعرفوا طبيعته. وكل شتاء ، منذ قرون ، تسبب الانفلونزا للناس اضرارا جسيمة ، ومع ذلك فانتم عاجزون عن القضاء عليها. ولنتجنب الكلام عن ألف مشكلة ومشكلة تتركونها معلقة بلا حل. وباختصار ، خلصنا الى النتيجة التالية : لو ان أهل الأرض كرسوا كل مواردهم المعنوية والمالية لحل هذه المشاكل لبلغوا الى المستوى ذاته الذى وصلنا اليه ، أو بعبارة أخرى لوجدوا السعادة بدورهم. ولكنهم عنها بعيدون ! مواردهم يستخدمونها في بناء الصواريخ. وهذا هو المجال الوحيد لتقدمهم ينفقون عليها مبالغ فاضحة ، ربما كفت لتخليص البشر من أوجاعهم. وبعبارة موجزة ، فان الكرة الأرضية باسرها تتصرف اليوم ، مثلما تصرف طوال آلاف السنين كل شعب من شعوبها ، أقصد تتصرف ، وذلك من أجل شقائها ، كباغ معتد على جيرانها. وكيف لا نحكم عليها هكذا ؟ ان الأرض

تضرب بكل منطق وكل مثالية عرض الحائط ، وتفكر أن تهاجم كواكب أخرى . ألم تعلن انها تطمح فى أن تسيطر على الكون ؟ ألم تبدد ملايين الدولارات واطنانا من الطاقات العقلية ، كى تغرس علما على تلك الجزيرة القاحلة المقفرة ، أقبح بقاع الكون ، الا وهى القمر ؟

اعترض فيلوس قائلا :

ــ ولكن ، هذا هو البحث العلمى ..

فأجاب الرئيس :

ــ لو كنتم عنيتم بالأبحاث العلمية اللازمة لوجودكم ، لو كنتم تغلبتم على الشقاء ، لو كنتم تحيون فى ظل السلام والسعادة ، لو كنتم على الأقل اتخذتم من الكرة الأرضية موضوعا لاستكشافاتكم ، الكرة الأرضية ، يا صديقى التى هى ملاذكم ومأواكم ، والتى لا تعرفون شيئا عن أحشائها ، ومن وقت لآخر تبيدكم زلازلها .. اذن لأمكننى أن أعترف لكم بالحق فى متابعة تقصياتكم فى الكون كله . ولكن ، ها أنت ترى ! ثمة عصور طويلة تفصلكم عن ذلك التقدم . اذن ، كلا ، وألف كلا مشروعاتكم ليست سوى حماقات ! لقد استبد بنا القلق طويلا بسببكم . ولكننا الآن ــ والفضل فى ذلك لك ــ اكتشفنا ان الكرة الأرضية تضم أيضا كائنات تتمتع بتصور جد نبيل للوجود ، وتعتنق ما نعتنقه نحن أيضا من مثل عليا . ومن ثم ليس من

المستحيل أن تنتج الكرة الأرضية ـ هذا الطبل الأجوف ـ يوما ما شيئا خيرا وجميلا • بطبيعة الحال سنبقى متخذين حذرنا ، اذ يحدث عندما يكون المجانين كثيرين ، كما هو الحال على تلك الكرة ، أن يتوصلوا الى فرض قانونهم على العقلاء • لكننا لم نفقد الأمل قط • وأصبحنا الآن أكثر طمأنينة ، وندين اليك بذلك كيف يمكننا أن ندلل لك على امتناننا ؟

سارع فيلوس يقول :

ـ بأن تعيدونى الى الأرض بأضمن الوسائل •

صاح الحمام البشري مندهشين :

ـ الى الأرض ؟ ولكنك فى الجنة هنا اذا ما قارنت هـذا الكوكب بالأرض •

ـ بالنسبة لكل بيته هو جنته •

ـ لكننا سنعاملك هنا معاملة الابطال • ستجوب كوكبنا معلما لبنى جنسـنا ، وستحاط اينما حللت بمراسم الترحيب • ستكون أشبه بملك هنا •

قال فيلوس بتواضع :

ـ معذرة • لكننى أيضا فى يانينا ، وعلى وجه التحديد فى فى برجى ، أشبه بملك • والملك لا يغير مملكته أبدا ، لأنه اذا فعل ذلك ، فسوف يكون الدليل على أنه لا يشعر بأنه ملك حقا •

قال له أحد الموجودين :

ـــ انك ملكى متطرف •

رد عليه فيلوس بحماس :

ـ كلا ، أنا ديمقراطى ، وصفتى الملكية منحها لى الآخرون بفضل تفوق جناحى •

قال الرئيس :

ـــ انه محق • ولا يجب ان نعارضه • سوف نعيده اذن الى الكرة الأرضية جهزوا بسرعة أفضل أطباقنـــا الطائرة ، رقم ٩٨٠٥٣٤ • أين تريد أن تهبط على وجه التحديد ، يا صديقى ؟

ـــ فى المكان ذاته الذى سافرت منه •

ـــ آه ، حسنا • هذا يسهل الأمـــور ! اذن ، أيهـــا الأخ المهندس • اضبط الطبق فى اتجاه الأرض • هذا يكفى •

فجأة ، أحس فيلوس بالخوف • وقال :

ـــ لكن الأرض وان كانت نقطة صغيرة بالقياس الى الكون الا أنها بالنسبة لنا فسيحة للغاية • فاذا نزلتم بى نزولا عشوائيا وبلا تحديد للمكان الذى سأنزل فيه ، فسوف يكاد يكون من المؤكد اننى سأضل طريقى •

قال له الرئيس مبتسما :

ـــ اطمئن • ان علومنا علوم يعتمد عليها •

ــ أعرف . وقد ثبت لى ذلك . ولكنك قلت « فى اتجـاه الأرض . هذا يكفى » لا شك ان هذا دليل على تقـدم علمى كبير ؛ بل وكبير جدا . ولكن بالنسبة لى أنا الحمامة المسكينة..

استطرد الآخر يقول له بلهجة حاسمة :

ــ لابد ان جناحيك لا زالا مشبعين بالكهربية المغناطيسية التى تبين التربة التى سرت عليها خطواتك الأخيرة ومن ثم ما ان تدخل الغلاف الجوى للأرض فان طبقنا الطائر سيتوجه تلقائيا الى الموضع الذى تنبعث منه الشحنة الكهربية المغناطيسية ذاتهـا التى فى جناحيك . وفى هذا الموضع فحسب سيفتح الطبق لك أبوابه .

صاح فيلوس منبهرا :

ــ هذا خرافى !

رد عليه الرئيس قائلا :

ــ كلا ، يا صديقى . انه نتاج العلم فحسب . ولكنه علم مسلط على مشكلاتنا نحن ، ولا يبدد جهوده للتصدى لمشكلات لا تحصى يثيرها كون لا نهائى .

وهكذا وجد فيلوس نفسه بعد بضع ثوان ينزل من قفص رائع الى حيث الزنبق الابى والوردة المتواضعة . رأته الزهرتان يرفرف على مقربة منهما بجناحيه ، فحيتاه ملوحتين بأوارقهما .

قالت الوردة :

ـــ حسنا فعلت . كنت محقا اذ عدت !

قال الزنبق :

ـــ المساء يوغل متقدما الى الليل . ابق ونم معنا . الليالى جميلة على الجبل .

كانت فكرة رائعة . ثم كيف يعود الى برجة فى ساعة متأخرة مثل هذه ؟ وأى انطباع سوف تعطيه هذه العودة العجول للسيد ايكار ؟ من الأفضل اذن أن تكون عودته فى الغد .

شكرهما فيلوس على دعوتهما ، والتقط من هنا وهناك بعض الثمار البرية ، ثم اقترب من الزهرتين . رأى الزنبق يغلق ببطء نوارته الحمراء الطويلة الضيقة المرتعشـــة . وبدا لفيلوس أن الزنبق قبل أن ينغلق تماما رشف قليلا من الوردة . ولم يعرف فيلوس ما اذا كان الزنبق قد رشف من عبير الوردة أو من لقاحها وفى كل الأحوال ، فقد أخذ الزنبق قليلا من الوردة كى يضمه الى حضنه وهو نائم .

ولم تكن الوردة الوحيدة النابتة على شجرة الورد منتصبة مثلما فى الصباح على عودها . بل بدت مائلة قليلا ، كما لو كانت تضع خدها على وسادة أثيرية . حط فيلوس على غصن أجرد فى حماية أجمة كثيفة .

رويدا رويدا امتدت الظلال وعتمت وأصبحت زرقة النهار فى لون الرماد . هبت نسمات خفيفة ، نقية ومعبقة بالاريج . وبدلا

من أن يبدو الليل الصخرى أكثر جهامة مع مقدم الليل ، أضحى على العكس رقيقا ؛ كما لو كان قد استسلم للنوم بدوره . ولكنه قبل أن يروح فى النوم ، تصاعدت من أخمص الجبل وسفوحه آلاف الأصوات الخفيضة . بدت كما لو كانت هذه الهمهمات العديدة تتحادث مع الريح ، أو ربما تهدهد حشائش الجبل الهزيلة وزهوره القليلة ، أو ربما تسبح بحمد الخالق على جمال اليوم المنصرم ، أو ترجوه أيضا أن يكون الغد صافيا وذهبيا ومعطاء مثل سابقه . من الذى بامكانه أن يدرى ؟ ولكن كان واضحا ان ثمة احساسا بلغز الأبدية ، وأيضا بالهدوء والسكينة يسودان المنظر الطبيعى كله . بدا الجبل كما لو كان لا ينتمى الى أرض البشر ، بل الى الكوكب الآخر ، أرض الجمال والسلام .

أحس فيلوس بقلبه يتفتح بهجة . حتى يضحى باتساع الليل كله .

قال هامسا :

ــ تنامان ؟

أجابت الوردة قائلة :

ــ كلا ، لم أجد النوم بعد ــ

وأضاف الزنبق قائلا :

ــ ولا أنا .

ــ لو تكلمت هل أبعد النوم عن أجفانكما .

أجاب الزنبق بصوت حالم :

ــ الكلام الرقيق لن يجعل النوم يهرب .

ــ وكيف عرفت أن كلامى سيكون رقيقا ؟

ــ على جبل بهذا الهدوء ، وفى ساعة مباركة مثل هذه ، ليس بالامكان أن يتحدث أحد حديثا مختلفا .

تمتمت الوردة قائلة :

ــ أيتها الحمامة الصغيرة ، قولى ما تتوقين الى قوله . اننى أنزلق دون أن أشعر الى النوم .

قال فيلوس بصوت خفيض :

ــ انكما لستما مخلوقين جميلين وجذابين فحسب بل انتما حكيمان أيضا . لو كان البشر يشبهونكم قليلا لصارت الأرض جنة .

رأى كلا من الزهرتين تفتح أوراقها وتتبادل مع الأخرى ابتسامة فخور ، قبل أن يغوصا فى نوم عميق . وسرعان ما نام فيلوس بدوره سعيدا .

٥

على طريق السعادة الحقة

فى اليوم التالى، مثل كل يوم استيقظت الحمامة الوسيمة ذات الجناحين المتعبين مثل كل اخوتها ، ما ان بزغ الفجر . ساكنة وقد التصق ريشها بجسدها الصغير ، فتحت جفنيها الرقيقين اللذين يغطيان الياقوتتين المستديرتين اللامعتين . اختلجت الياقوتتان اختلاجة طفيفة واستدارتا نحو العاشقين .

كانت الزهرتان لازالتا نائمتين . لم تتركا بعد عالم الأحلام . ومن يدرى كيف كان كل منهما ملتحما بحلم الآخر ؟

امتلأ قلب فيلوس بهجة . أحس بسكينة راسخة ، وأمان لا يتزعزع . غارقا فى أحاسيسه ظل فى مكانه يتأمل بالاعجاب تارة الزهرة الأولى وتارة الزهرة الثانية . غمر الضوء وقد اختلط فيه الخفر بالطمأنينة ارجاء المكان رويدا رويدا . كما لو كانت الظلمات تذوب فى الضوء القادم ، أو كما لو كانت الحقيقة الوضيئة تتغلغل من الجهات الأصلية فى أسرار الظلال وتبددها .

كان بامكان فيلوس الآن أن يراقب صـــديقيه الجديدين بشكل أفضل . اخذت كأس الزنبق المديدة الحمراء تنفرج مليا، كما لو كانت تتردد . تنفتح قليلا ثم تعود فتنغلق ، ولكن بقدر أقل . وهكذا بتقدم لا يكاد يكون ملحوظا راح التفتح يحدث

أما الوردة فأخذ رأسها الصغير المائل يرتفع . يستقيم قليلا ثم يميل من جديد . ولكن فى كل مرة كان هـــذا الميل يقل ، وبالتدريج انبسطت بدورها فى وجه النهـــار الجديد ، الذى تغلب على الليل رويدا رويدا . وبرقة تمتمت الوردة :

ــــ هل استيقظت يا حبيبى ؟

أجابها الزنبق باللهجة ذاتها :

ــــ ما ان تفتحت عيوننا حتى رأى كل منا الآخر . انى استيقظ وها نحن نستقبل النهار سويا .

همهمت الوردة :

ــــ على الدوام هكذا . وعلى الايقـــاع ذاته . ما أحلى ذلك ..

صمتا . ثم عاد الزنبق الى الحديث . فقال بصوت أكثر وضوحا :

ــــ أحبك

أجابته الوردة قائلة :

ــــ يوم صاف يبدأ . ما طلع النهار الا كى أتدله بحبك .

ارتسمت على الزنبق مسحة من التفكير :

ـــ فلنحمد الله الذى منحنا مثل هذه الليلة الجميلة ، وهو يعدنا الآن بنهار لا يقل عنها جمالا .

ثم استغرقت الزهرتان فى التـأمل ، ومن جـديد استطرد الزنبق يقول :

ـــ أريد أن أدلى اليك باعتراف لا تتوقعينه . عندما يشرق يوم جديد يلوح لى اننى سوف أحبك أكثر مما أحببتك اليوم السابق .

تنهدت الوردة وقالت :

ـــ آه ! آه ! ولماذا تأخرت النحلة فى المجىء ؟

ـــ سوف تجىء ، يا صديقتى ، سوف تجيىء .

لكن الوردة أصرت تقول :

ـــ واذا لم تجىء ؟

ـــ هذا مستحيل ، سوف تأتى ، بلا شك .

ـــ كيف يمكنك أن تكون على هذا اليقين ؟

ـــ قدرها يريد منها ذلك ، وقدرنا نحن أيضا . هنـاك طائفتان من الكائنات لا يسخر منهـا القدر أبدا : طائفة من يعملون ، وطائفة من يحبون . كيف اذن يمكنها أن تتركنا ، نحن بغير قبلات ، وهى بغير عسل ؟

لم يستطع فيلوس أن يتمالك نفسه . أدرك أنه فى اللحظات التى أعقبت يقظة الزهرتين وتبادلهما الحب ، نسياه بينما كان يرغب أن يتمنى لهما السعادة بعبارات منتقاة . ولكن ازاء عاطفة مثل هذه ووفاق مثل هذا يعبر عنهما بلا كلمات ولا حركات ، بل برهافة حس مضمر . كان من المتعذر عليه أن يفصح بألفاظ عن فرحته . ومإذا يمكن أن تكون لهذه الالفاظ من قيمة ؟ حتى لو انتقيت بفن لأضعفت تعبيره عن سعادته . هل نطقت الزهرتان بعبارات نفاذة ، أريبة ، مهذبة ، كى تبعث فى نفسه عاطفة مثل هذه ؟ كان كلامهما بسيطا ، بل غاية فى البساطة ، ولكن أحاسيسها عميقة ، غاية فى العمق . كان عليه اذن أن يجد وسيلة أخرى غير الكلمات ليترجم بها مشاعره . ورأى أن يتبع فى ذلك ما يهديه اليه قلبه .

قفز خارجا من مرقده ، بسط جناحيه واندفع الى الفضاء فى حركات دائرية باهرة ، فوق الرأسين النبيلين والساقين الرقيقين للزهرتين . كان يصعد قليلا ثم ينزل عموديا . ينعطف الى يمينهما ثم يعود الى يسارهما كما لو كان يريد بما يشكله من حركات أن يحتضنهما بجناحيه ويباركهما .

صاح الزنبق :

ـــ ضيفنا ! ضيفنا الجميل !

ـــ انظر حركاته البارعة ! كم يبدو سعيدا !

ـــ انه يستمتع بالنهار الذى يبدأ .

ـــ وربما يحبنا أيضا .

وفجأة ، راح فيلوس يرفرف بين الزهرتين مخفقا الهواء بجناحيه .

تمتمت الوردة بارتخاء :

ـــ آه ! آه ! تلقيت نفحتك !

ـــ وأنا تلقيتها منك ، يا حبيبتي .

ـــ لم أكن أعرف ان بامكاننا أن نتبادل القبل دون عون من النحلة أو من نسمة الهواء !

ـــ انه القدر الذي سمح بذلك ، يا حبيبتي . لأن صديقتنا النحلة تأخر بها الوقت .

لم يكن بوسع فيلوس أن يتمالك نفسه من الفرح . فأكثر من دوراته . ولكن عينه المدربة لمحت بعضا من النحل يقترب وما كان يجب أن يخيفها حتى لا تغير من طريقها . كما كان يجب أن يبتعد دون كلمة : ان الأفعال النابعة من القلب تتكلم آلاف المرات أفضل من الكلمات المنمقة . وأفعاله هو تكلمت .

نزل بسرعة الى جوار الزهرتين ، وطبع قبلة احتفاء على ورقة من أوراق شجرة الورد الخفيضة . ثم حيا الزنبق برفرفة من جناحه الايمن . وطار متجها الى قمة جبل الميتسيسكيلي ، وقد تسنى له أن يلتقط كلماتهما الأخيرة وهو يبتعد .

قال الزنبق وهو يتابعه بنظراته :

ـــ انه سيد ظريف جدا ٠

وردت الوردة بالايجاب ٠ ثم ما لبثت أن صاحت :

ـــ ولكن أنظر ، أنظر ـ النحل فى طريقه الينا ٠

ولم يسمع فيلوس بقية حوارهما ٠ ولم ير قبلاتهما تتحول الى عسل ٠ ولكن على شفتيه ، وفى قلبه ، وفى جسده كله ، أحس طعم العسل ٠ كما أحس بالجوع أيضا ٠ ان الحب لا يشبع البطون أو على الأقل الحب بين الآخرين ٠

تجاوز فيلوس قمة الجبل ، ونزل بمحاذاة الجانب المقابل ٠ اكتشف عند السفح تجويفا كبيرا عثر فيه على بعض الحبوب البرية ، تغذى بها وجدد قواه ٠ تذكر الوجبات الدسمة التى كان يتناولها فى الأيام الخوالى من يدى السيد ايكار ٠ هل يعود ؟ هل يعود حالا ؟ سوف يكون لديه بذلك الوقت كى يشارك فى طيران سربه الصباحى ٠

كان ميالا الى العودة بشدة ، لكنه ما كان يجب أن يفعل ذلك بهذه السرعة ، والا فلن يصدق أحد انه فى فترة قصيرة كهذه رأى مشاهد خارقة وعاش تجارب غير مألوفة ٠ سوف يقولون انه ما دام قد عاد قبل موعد انتهـاء اجازته الاستثنائية بأربع وعشرين ساعة فمعنى ذلك انه لم يكن فى رحلته موفقا ٠ اذن ، ماذا يفعل ؟ أسند منقاره الصغير المدبب على طرف جناحه وفكر ٠

وجدها ! بعد هنيهة سيغلق السيد ايكار باب بيته ثم سور الحديقة ، وسيذهب الى عمله • ولن يعود الا بعد الظهيرة • اذن ؛ سيمضى فيلوس يتسكع قليلا ، وسيكتشف جزءا صغيرا أضافيا من العالم الرحيب • وعندما سيحلو له سيعود الى حديقة السيد ايكار • سينتظر أوبة سيده من عمله ، متأملا الشجر من حوله ، متنزها وسط الزهور ، معجبا ببرجه ، مصغيا الى هديل أخوته • سوف يقول انه عاد لتوه كي يشترك فى الطيران المسائى • ولن يكون هذا سوى اكذوبة صغيرة للحفاظ على كرامته ! ولكن هذه الاكذوبة سوف تتيح له أيضا متعة من نوع آخر •

ذلك انه يحس الآن حنينا الى حياته العادية • وكل ما رآه قوى فى أعماقه هذا الحنين • كيف عبر الزنبق عن ذلك أمس ؟ قال ان انتظار لحظة سعادة ، كثيرا ما يكون مفعما بحلاوة أكثر مما فى تلك اللحظة ذاتها • وكان على حق ! فقد كانت تلك الحلاوة هى التى يتذوقها فيلوس الآن فى هذه البيئة العزيزة عليه .•

تماما ! هذا ما سيفعله • لاشك ان اسناد المنقار على طرف الجناح كما يفعل البشر ، يساعد على التفكير •

ناعم البال الآن ، راح يتأمل المشهد المنبسط أمامه ، بالناحية الاخرى من السهل ، قطيع من الخراف يرعى • اختار فيلوس لاستكشافاته هذا الاتجاه •

راحت الخراف تقضم الكلأ بأسنانها القاطعة ، وهي تهز رؤوسها في إيقاع رتيب . الى جوار القطيع وقف صبي كبير جعد الشعر ، ولحيته قصيرة كستنائية . احنى قامته انحناءة خفيفة متكئا بيديه على عصا طويلة رفيعة . كانت عيناه تلمعان حنانا . وفي لحظة ازدادت لمعانا ، فقد وضع اصبعين في فمه ، وأطلق صفارة غريبة عدة مرات . ماءت الخراف جذلانة ، وهرعت نحوه وحوطته . ساقها الى كومة صغيرة من الحجارة المستوية، وقال لها ضاحكا :

ـ أجل ، بالطبع ! من اجل الملح اطلقت اليكم صفارتي . كيف لا تبتهجون ، يا صغاري ؟

وضع على قطع الحجارة الرحيبة عدة حفنات من الملح الخام، أخرجها من كيسه ، ثم راح يجوس ببطء وسط الاغنام . يربت على ظهر شاة ويغرس قبضته في الجزة الكثيفة لأخرى . وفي بعض الأحيان كانت بعض الخراف ترفع رؤوسها برهة تجيب عليه بثغاء ينم عن الفرحة . هل كانت تريد ان تعبر عن رضائها ؟ تقدم الشكر لله ، أو للراعي ؟ أم كان ثغاؤها طلبا لمزيد من الملح ؟

ولما كان فيلوس يجهل لغتها ، فقد كان غير قادر على ان يحدد . كل ما كان باستطاعته ان يقوله لنفسه هو انه لو كانت الفرحة تترجم بأصوات ، فان أصوات الثغاء هذه هي الترجمة

الامينة للفرحة . وبالمثل لو كان الحب والطيبة تصدران نورا ، فانه ذلك الذى يلمح فى عينى الراعى .

ومن جديد لم يستطع ان يكتم انبهاره . ومن جديد أيضا عجز عن ان يترجم بالكلمات المهرجن الكبير الذى تبدو الحياة عليه .

رتفع قليلا حتى يتسنى له ان يحلق فوق الخراف والراعى ، تمهيدا لتأدية بعض ألعابه المتهورة . على أنه الآن ظل يلزم جانب الحذر ، ألم يكن الراعى من البشر ؟ فماذا لو حاول أن يقتله ، هو أيضا ؟

لكن الصبى لم تكن تبدو عليه نوايا سيئة . اقترب فيلوس منه ثم ازداد اقترابا فلم تبدر من الصبى أجعد الشعر محاولة لأن يمسك به ، أو يصرعه . بل اكتفى بمتابعة مناوراته بنظرات جذلة . أمعن فيلوس فى مرحه وشقاوته . وعندما تعب فى النهاية حط على الجزة السميكة لأحد الكباش . ثم لوح بجناحه الأيمن للراعى وطار . كان يشعر بنفسه متحررا من الهموم ، سعيدا .

ماذا كان يحكى الحمام البشرى ؟ ان كوكبه هو الجنة ؟ ولكن الجنة توجد على الارض أيضا .

ومع ذلك ، ألم يكن الجميع ، كبارا وصغارا ، يريدون قتله أمس ؟ من يدرى ! ربما اختلفت طباع الناس تبعا للجانب الذى يسكنونه من الجبل . وان هذا الجانب من الجبل هو

مجرد قرى مثل زاغوريا المحاطة بالغابات والحدائق . كما تناثرت هنا وهناك بعض المروج الخضراء . ربما كان لكل ذلك تأثيره .

وهناك . بعيدا ، رجال يبدو عليهم كما لو كانوا يرقصون. وقفوا فى صفين متقابلين . ووضع رجال كل صف سواعدهم على أكتاف بعضهم . سوف يذهب ابراهم .. يا لله ! كلا . لم يكن الرجال يرقصون ! كل صف من الصفين تصدى للآخر يفصل بينهما جزازة أرض صغيرة ، ويفصل بينهما أيضا شعور بالكراهية الشديدة . وقد تسلح الرجال بأدوات العمل .

راح رجال أحد الصفين يصيحون ، ويلوحون فى صورة عنيفة من الغضب

ـ هنا ، ينتهى حقلكم . ولا حق لكم فى أى شبر آخر . لو تقدمتم خطوة ، سنقتلكم .

رد عليهم رجال الصف الآخر بلهجة أكثر ضراوة قائلين :

ـ منذ أجيال ، كانت العلامة الفاصلة هناك . وتمتلكون من الارض عشرة أضعاف ما نملك . كما ان اغنامكم تلد توائم ، بينما أغنامنا تصاب كل مرة بالاجهاض . سوف نجتاز الحدود .

وخطوا الى الامام خطوة ، يلوحون بمعاولهم . لمعت فؤوسهم . واستحالت المناجل الى أسلحة للقتل . من الجانبين خر رجال على ركابهم صرعى . يا للفظاعة ! حتى فى هذا الجانب

المسالم من الجبل يحدث ذلك . أكذوبة هى الانسانية ! ما من شـك فى ذلك . وفيما عدا بعض الاستثناءات القليلة . فهذه الانسانية ينقصها العقل .

بسرعة ! بسرعة ! يجب ان يعود الى بيت عزيزه الاستاذ ايكار الذى كان أحد هذه الاستثناءات . بسرعة لتجنب التواجد فى المجزرة ، وتفادى رؤية مزيد من البشر ، أو بعبارة أدق مزيد من المجانين ...

ولكن فى اللحظة التى بدأ ، وهو يقترب من برجه ، يسترد هدوءه ، شدته عاطفة من نوع آخر . لماذا نزع هذان اللوحان الخشبيان من مكانهما فى السور ؟ أى معتد أثيم جرؤ فى غيابه ان يمد يده اليهما ؟ وما الذى حدث اذن للسيد ايكار ؟

سـار فيلوس بخطوات خفيفـة على اللوحين الخشـبيين المخلوعين . ودلف بحذر من الثقب الذى أحدث بالسور . هكذا كان يجب أن يتصرف . اقتفى آثار المعتدى . وسرعان ما اكتشف أنه لم يكن ثمة معتد واحد ، بل اثنان . ذلك ان آثار الاقـدام المنطبعة على العشب كانت لشخصين يسيران جنبا الى جنب . كانت هذه دلائل قاطعة .

على ان باله ارتاح ، أو على الأصح رق قلبه ، بعد ان خطا بضع خطوات فى الطريق اليهما . كان اللصان عاشقين . أرادا أن يفيدا من الحديقة ، فتمددا خلف الزنابق البيضاء والى جـوار

الورد الاحمر • عاشقان وسيمان وفى ميعة الصبا ! ولم يكن قد ارتكب بدخولهما حديقة السيد ايكار اثما يحسب عليهما •

متأثرا ، بحث فيلوس عن مكان يراقبهما منه • كان الشاب يتأمل حبيبته باعجاب • بينما راحت هى تحدق أمامها شاردة الفكر ، أو ربما قد تكون مستاءة من شيء • الأمر غريب على أى حال •

همس الشاب قائلا لها :

ـ احبك •

ـ أنا أيضا احبك ، لكنك فقير !

ـ من قال انى فقير ؟ انى أمتلك على العكس ثروات كثيرة •

ـ وما ثرواتك هذه ؟

ـ الشمس ، القمر ، الزهر ، أحلامى •

ـ لكن هذه ملك للجميع ، للجميع بلا استثناء •

ـ لو كنت تعرفين كم تخطئين ! هذه الثروات لا يقتنيها الجميع بالتساوى ، فمن البعض من لا يريدها ، والبعض لا يعرف كيف يستفيد منها • ومن ثم لا يستمتعون بها • أما أنا فأحسن الاستمتاع بهذه الخيرات • ولهذا فهى ملكى • أما الآخرون فلا يفيدون الا بالقليل الذى يمكنهم أن يلمسوه بأيديهم فحسب•

ـ افضل الثروات المادية •

ـ هذه الثروات ، يا كنزى الثمين ، فانية ، يدب فيها العطن ، ويأكلها الصدأ . أما ثروتى أنا فلا تضيع ولا تستنفد ومن ثم كانت هى الثراء الحقيقى .

ـ طائلة هى ثروتك الى الحد الذى لا يمكنك أن تشترى لى بها ولا حتى زهرة واحدة !

قطف الشاب وردة حمراء ومد اليها يده بها . وقال :

ـ عيناك شفتاك ، يداك ، هى زهورى أنا . بامكانى على أى حال ان أهديك كل يوم زهورا حقيقية . والآن خذى هذه الوردة الجميلة .

تناولتها الفتاة الشابة وألقت بها جانبا .

ـ لا اتحدث عن هذه ، ولكن عن تلك التى يبيعونها فى السوق .

ـ ولكن تلك زهور مصطنعة وبلا عبير .

ـ بالعكس أنها لا تذبل مثل زهورك . ثم أنها (موضة) الآن . على الأخص تلك التى من حرير أو قطيفة . يشبكها الفتيات فى شعرهن أو على (البلوزة) فيبدن أنيقات جدا . هل ستستطيع ان تشترى لى زهورا من هذه ؟

قال الشاب حزينا :

ـ ليس بسهولة .

ـ كيف سنعيش ، اذن ؟

ـ من عملنا . أو ان شئت من عملى أنا فحسب . وهـذا يكفى لحيـاة متواضـعة . تعرفين أن عملى رأسمال لا يتبدد ولا يتلف ، لانه لا يعتمد سوى على يـدى وعقلى . أنه ليس مثل هذه الاموال التى يمكن الاستحواذ عليها .

أتت الفتـاة بحركة تدل على معارضتها له . دست ركبتيها تحت معطفها ، وحوطتهما بساعديها ، واستطردت تقول :

ـ ومع ذلك ، فاننى أفضل تلك الاموال . وعلى الأخص اذا كانت وفيرة .

سألها بصوت مرتجف :

ـ ربما تحبين غيرى ؟

ـ كلا . اذا كنت أحب أحدا ، فأنت الذى أحب . لكنك فقير للغاية ! لا نستطيع ان نتزوج .

ظلا صامتين هنيهة . لم تغير من جلستها ، واستمرت امارات الاستياء على وجهها . أما هو فراح يحملق فيها بوله ويأس . أظلمت النظرة فى عينيه . وبدا جليا ان قلبه يرتجف فى صدره .

وفى صدر آخر تحت الزغب والريش ، ارتجف قلب آخر أيضا . بينما بدت اليـاقوتتان المتقدتان حيوية الآن كاللآلىء المزيفة ، زائغة وصماء .

لم تستطع رأس فيلوس الصغير ان تستوعب كل ما رآته عيناه • كم كان عالم البشر عبثيا فى النهاية ! كيف كان بالامكان ان يحب الفتى فتاته كل هذا الحب ، ولا تكن له هى من الحب الا أقل القليل ! كيف كان باستطاعتها ان تدعى أنها تحبه ، بينما هى لا تريد ان تتزوجه لأنه فقير ؟ ماذا يعنى ان تكون فقيرا ، وماذا يعنى أن تكون غنيا ؟ لابد ان أرستقراطيى الحمام الذين يسكنون قصورا باذخة ، ويأتى الناس جميعا يمـــدون اليهم أيديهم بالطعام ــ لابد ان هؤلاء هم الاغنياء • أما الحمام المنطلق كالسهم الذين يسكن أغلبهم أبراجا متواضـــعة ، ولا يتلقون الا وجبات متقشفة حتى لا يزيد وزنهم فيثقلون عند الطيران ــ فلا بد أنهم يعتبرون فقراء ، بل وفى بؤس وضنك • ولكن أى الحمامين كان أسعد ؟ أيهما يبدى شجاعة أكبر ؟ أيهمـــا يعيش حياة أكثر سموا ؟

أنسته هذه الأفكار أحزان العاشقين • رفع رأسه بكبرياء • واذا كان مجهولا من الجميع ألم ينقذ هو الحمامة المتواضعة الكرة الارضية كلها • أمس ؟

ولكن لم يتح له الوقت كى يتلذذ بهذه الفكرة ، اذ عاود الشاب الحديث • فأرهف فيلوس السمع :

ــ لو كنت تعلمين كم أحبك • الى حد لا يمكننى ان اعبر لك عنه • وددت أن انتزع قلبى وأضعه عند قدميك •

سألت ببرود :

ــ وهل سيجد قلبك مشتريا ؟

ــ ذهب الدنيا كله لا يكفى لشرائه .

ــ انه لا يساوى ولا فلسا واحدا ، لو أراد أحد ان يشتريه .

ــ اننى لم أشر الى ذهب الدنيا اعتباطا يا كنزى العزيز فالقلب لا يتجر به . انه لا يباع ولا يشترى .

نهضت الفتاة فجأة . دقت الارض بقدمها ، وقالت :

ــ فاض بى الكيل منك ! قلبى أنا للبيع ، واليوم عقدت الصفقة ، وغدا سأخطب لأغنى تاجر فى يانينا .

حاول الشاب النهوض بدوره ، لكنه لم يتحرك من مكانه . رجع بجسمه الى الوراء قليلا ، واتكأ على راحتيه ، ثم قال مرتبكا :

ــ هل أنت جادة فيما تقولين ؟

ــ لا استطيع ان ابقى جادة . صفيت حساباتى معك . وان كنت قبلت هذه النزهة فلأنى اردت ان أقول لك ألا تزعجنى بعد اليوم . ما الذى يجعلك تظل جالسا هناك ؟ انهض .

نظر اليها بعينين حزينتين شاردتين ، وقال :

ــ كلا . سأبقى كى أبكى . هنا حيث نزلت بى ضربة القدر . انى بحاجة الى البكاء ..

استدارت الفتاة الشابة بحركة عصبية ، ومضت مبتعدة بخطوات سريعة . أخذ الفتى رأسه بين يديه ، وأخذت دموعه تسيل . انهمرت بغزارة .

خنق اليأس فيلوس . كيف يضع نهاية لهذا الحزن ؟ ماذا يقول لهذا الفتى اللطيف الذى كانت كلماته تقطر شعرا ؟ تذكر تصرفه مع الزنبق والوردة . ثم مع الراعى . فى مناسبات مثل هذه يكون الكلام عاجزا فى التعبير عن المشاعر . ولكن مع الزهرتين والراعى ، كان ما يريد ان يعبر عنه بحركاته الدائرية هو الفرحة . أما الآن ، فأنه سيعبر عن الألم . والحمام لا يبكى . ولو كان قادرا على البكاء للازم الشاب ولسرى عنه بصحبته . اذن ، ماذا يفعل ؟ اقترب منه بخطوة غير محسوسة .

راحت الدموع تنسكب من بين أصابع الشاب . وظلت بعض هذه الدموع ملتصقة بالحشائش على الارض ، تلمع فى ضوء الشمس ، أشبه بجواهر صغيرة وضاءة .

وفجأة ، كما لو كانت قد جاءت فيلوس فكرة ، هز رأسه الصغير بقوة . هل يقدر ؟ كان لابد من المحاولة على أى حال . اقترب من الشاب . مد رقبته وأمسك بمنقاره احدى الحشائش المحلاة بجوهرة من جواهره .

بدت الدهشة على الشاب لهذه الحركة . رفع يديه من على وجهه ، وباعتباره من أهل يذنينا فقد تعرف على الطائر . وقال له :

ـ لابد انك فيلوس ، بطلنا • لابد أننى فى حديقة السيد ايكار •

صمم فيلوس على التزام الصمت فتظـاهر بأنه لا يفهم • ولكى يفعل شيئا ولا يبدو مثل أحمق : أو ربما أيضا كى يمضى فى تجربته ، مد رقبته من جديد وقضم ساقا أخرى من الحشائش مزدانة بدمعة •

صـاح الفتى :

ـ كلا ، يا فيلوس • كلا ، ستحرق معـدتك • ان دموعى شديدة المرارة •

استرد صوته بعض العذوبة • وقسماته أيضا عادت اليهـا الرقة • هل اهتدى فيلوس الى الطريقـة التى تسرى عنه ؟ ان حركاته على أى حال ما كان بالامكان ان تسبب ضررا ، بل على العكس ربما أفادت كثيرا • انكب فيلوس بحركات سريعة من رأسه ، مدا رقبته الى الامام ثم الى الخلف بغتة ، رشف الدموع كلها ، التى كانت تتلألأ بين العشب •

رفع رأسه الصغيرة كى يرى الشاب • بدت على ملامحه الآن السكينة ، بل أنها اصطبغت ببعض البهجة • وجفت الدموع فى مقلتيه • طفرت منه دمعة أخيرة ، نجح فيلوس فى الامساك بها وقد جاء طيرانه فى اللحظة المناسبة •

قال الشـاب :

ـ يا له من رصيد ، من الحب والطيبة ، تدخـره الحياة ؟ وأنه لعزاء كبير ! لماذا ترفض الانسانية أن تفهم ذلك ؟

وكأجابة على هذا التساؤل راح فيلوس يتقافز برشاقة .

استطرد الشاب يقول :

ـ أجل ، يا حمامتى الصغيرة ، ان كل الهموم تنحدر من ان العالم يتجاهل الثراء الذى يخبئه الانسان بداخله . كم من طيبة وحب ينضبان ويتبددان بدلا من أن ينموا ويزهرا !

نهض ومضى يقول للطائر الذى يخفق بجناحيه عند قدميه:

ـ كنت بدورى على وشك أن أنسى ذلك . وأنت يا حمامتى الصغيرة ذكرتنى به . أشكرك . انى مدين لك بجميل كبير . سوف أحبك طوال حياتى .

قطف الفتى الشاب غصنا من الزنبق الابيض وضعه على أذنه . ثم نزع ورقة حمراء من وردة نابتة على شـجرة الورد ودسها فى فمه تاركا نصفها يتدلى من بين شفتيه . ثم مضى فى صحبة فيلوس . لم يتوقف سوى عند السـور كى يعيـد الى موضعيهما لوحى الخشب اللذين كان قد نزعهما .

جثم فيلوس على أحدهما . راح بجناحـه الأيمن يحيى الشاب الذى مضى مبتعدا يلوح له بغصن الزنبق حتى اختفى عند أول منحنى فى الدرب .

٦

مع أرستقراطية الفكر

ماذا يفعل الآن ؟يظل هناك ينتظر السيد ايكار ؟ لازال الوقت مبكرا . لديه ساعات عديدة أمامه ، وأيام التحرر جد نادرة ، ولابد من الافادة منها ! يجب ان يذهب الى أى مكان كى يتنور ويتعلم أو كى يلهو ويتسلى . ولكن أين يذهب ؟ خطرت لـه فكرة نيرة : لماذا لا يترك أيبروس قليلا ؟ لماذا لا يطير مثلا الى كورفو المشهورة ؟

راق له هذا الاقتراح . لم يجل بخاطره من قبل . اندفع الى السماء ، وبخفقات سريعة من جناحيه أتجه الى صخور تساموريا الوحشية .

مر فيلوس فى طيرانه بعديد من البقاع المقفرة ، بل وفى بعض الاحيان أيضا ببقاع ناضحة بالشقاء . رأى قمما جرداء ، تتعاقب وسفوح مدبية مسنونة ، خيل له فى بعض الاحيان أنه يسمع صرخات الجوع تصعد اليه من الكفور البائسة التى عبر بها .

أسرع فى طيرانه . بل ومضى يزيد من سرعته تباعا . وفجأة كان عليه ان يهدىء السير ، فقد حدث فى الجو تغير . همسات الأسرار المنبعثة من الوديان كثيفة الشجر ، والانفاس الحارقة الصعدة من البقاع الصخرية أخلت المكان لاحســاس بملحية وحلاوة ربانية فى الوقت ذاته . غلب احساس بامتلاء متصل . أصبح الجو تسوده زرقة أكثر عمقا ، بينما كان الجو من قبل أخضر شديد القتامة ، أينما جال فيلوس ببصره الآن يلمع المــاء مثل مرآة صافية ، تارة بانعكاسات فى لون الفضة ساجية رحبة ، وتارة فى تكسرات صغيرة مبتهجة . كان البحر ضيقا بين شاطئين شديدى التباين . فأعطى انطباعا شاردا . وجد فيلوس نفسه الآن فى الناحية الاخرى يطير فوق الجزيرة الساحرة .

كانت الجزيرة ساحرة ، حقا ! تنحدر جبالهــا الوديعة حتى البحر فى هيئة تلال متتابعة تتناقص فى الارتفاع تدريجيا . وتنحدر معها خضرة وفيرة تغرق المنظور فى آلاف الشجر منوع الالوان والتفاصيل ، ابتداء من أشجار السرو السامقة داكنة الخضرة الى أشجار الليمون البراقة المتواضعة فاقعة الخضرة ، مرورا بأشجار الزيتون العتيقة الجعدة رمادية الخضرة ، تمتد أغصانها الخفيفة متلوية مزهرة نحو البحر .

خطوط وألوان سكرى ! تربة خصبة ! يالها من أســطورة جمال مذهل !

تبدو على عاصمة الجزيرة مسحة مدنية من بلد آخر وعهــد

خو ، متوجة بقلاعها العالية ، مؤلفة من احياء قديمة ، وميادين نيقة وفسيحة ، وأزقة ضيقة وشوارع هادئة . تزين أغلبها شرفات قوسة ...

كل هذه المعالم الفخمة سوف يزورها فيلوس فيما بعد . أما آن نكان منهكا . وجناحـاه يكادان يكونان مخدرين . كان حاجة الى بعض الراحة . وعليه ان يجد ركنا يستقر فيه .

وعند زاوية احدى الشوارع الرئيسية قرب الشاطىء ، لمح بنى قديما عاليا ، عليه امارات نبل وأصالة ، ولكنه مجرد تماما ن السقف ، وحوائطه الوطيدة المكسوة بملاط أميل الى الحمرة قف فى كبرياء ولكن عارية . فقد كانت قد شبت فى هذا المبنى نار يوما . وعلى الواجهة افاريز منحوتة من الرخام الابيض تحيط لثقوب التى كانت بها أبواب ونوافذ من قبل ، وبدت الآن غريبة لاشكال . وعندما اقترب فيلوس منها ادرك السبب فى غرابتها ، قد كانت مسدودة بالاغصان الملوية لشجرة تين ضخمة شـقت ريق نموها بين الانقاض وراحت تغامر بالبحث فى الخارج عن زيد من الضياء .

عندما حط فيلوس على طرف واحـدة من أعلى النوافذ ، سمع الى جواره جلبة خفية . تحت الافريز ، هناك حيث ينقص لجدار حجر . جدلت حمامة بيضاء عشها ، وكانت تهم بأن تضع يه بيضهـا .

بدت خجولا وخائفة .

جال فيلوس ببصره فى النوافذ الاخرى ، فرأى كلا منها يأوى حمامة ربة بيت وديعة قلقة مثل هذه التى الى جواره .

جاء ذكر حمام وحط على حافة النافذة . كان بلون الرماد . ورأسه أكثر قتامة . وعلى جناحيه خطوط داكنة . ورقبته لامعة يزينها ريش صقيل تكسوه الشمس بلون الذهب . أقترب من الحمامة البيضاء وتبختر أمامها كما لو كان يقول لها « لا تخافى يا حبيبتى ، أنا هنا » ثم جثم أمام العش ، وبدا عليه بعض القلق بدوره . وراح الاثنان بنظـرات ثابتة يراقبان فيلوس . لم تكن نظراتهما عدوانية ، وان كانت متوجسة . ارتسمت عليهما الحيرة والتساؤل بوضوح ، كما لو كانا يعتقدان ان ثمة كارثة ستحل بهما ، أو ان ثمة سرا خطيرا أفلت منهما .

لم يكن فيلوس بدوره يفهم شيئا . وما الشذوذ فى أنه حط على هـذه النـافذة ؟ هل تبدو عليه ، دون أن يدرى ، سمات المتوحشين ؟ أو ربمـا ليس من اللائق الوقوف على مقربة عش عندما تكون الحمامة فيه وحدها ؟

انحنى انحناءة خفيفة للزوجين اللذين ردا عليه بتحية جد خجولة ولكن مؤدبة للغاية .

قال الذكر ذو الالوان البراقة :

ـــ اسمى بريكليس . وهذه زوجتى اسباسيا .

ثم لزم ثلاثتهم الصمت . تبادلوا نظرات مبهمة ، تقاطعت من وقت لآخر .

سأل فيلوس :

ـــ هل أضايقكما ؟

سارع بيريكليس مجيبا :

ـ كلا ، كلا ، ارجوك لا تظن ذلك .

ـ معذرة ، لاشك انى مخطىء . ولكن يبدو لى مع ذلك . انكما ترمقانى بنظرة غريبة .

تضايق الطائر ذو الالوان البراقة . وقال :

ـ كلا .. اعنى .. لا يأتى أحد الى هنا أبدا . ولكن أنت .. هل انت أجنبى وافد الى هنا ؟

ـ انى أجنبى وافد الى هنا ، حقا .

ـ شىء غريب .. ليس لك مظهر السياح .

تمحص فيلوس نفسه . ثم قال ضاحكا :

ـــ لاننى لا أرتدى سروالا قصيرا ولا نظارة ســـوداء . ولا أحمل دليلا سياحيا أو آلة تصوير .

ابتسم الزوجان ابتسامة شاحبة ثم قال الذكر :

ـ هذا هو السبب ، ولكن ثمة سببا آخر أيضا ، وهو انك لا تتكلم بصوت عال . وأكثر من هذا وذاك انك على الرغم من كل الابنية الفخمة التى تزهو بها مدينتنا الجميلة كورفو ، اخترت هذا المبنى لزيارته .

ـــ ومع ذلك يا أخى انى أقوم بالسياحة .

استطردت الأخرى وهى مستغرقة فى التفكير .

ـــ هذا أمر غريب . ان السياح لا يتسكعون ناحيتنا أبدا . ولا يأتى الى هنا سوى بعض نبلاء كورفو ، وعلى فترات متباعدة، كى يحلموا ، ويتأملوا ، ويبكوا .

ـ لماذا هذا ، اذن ! أين نحن ؟

ـ هذا المبنى ، يا أيها الوافد الغريب ، هو المكتبة الايونية، المكتبة الكبيرة القديمة الغنية ، مكتبة كورفو الشهيرة .

ـ لكننى لا ألمس كتبا . لا شىء سوى حوائط عارية ، وهيكل عمارة بلا سقف .

تنهد الزوجان . جالا ببصرهما فيما حولهما . ثم مضى الذكر يقول :

ـــ دمرت مكتبتنا فى أوائل الحرب ، ثم عندما أوشكت هذه الحرب على الانتهاء اشعل فيها النار .

دق فيلوس الافريز الرخامى ببطن ساقه ثائرا ، وسأل :

ـــ من المتوحشون الذين ارتكبوا هذه الجريمة ؟ الايطاليون؟ الألمان ؟

أجابه الآخر بابتسامة حزينة :

ـــ وحشية الحرب ذاتها هى المسئولة عن ذلك . وليس للحرب جنسية معينة .

ـ أما فى نظرى أنا ، فان للحرب جنسية . وأريد ان أعرف الجناة .

ـ الجناة ! الايطاليون والألمان ألقوا علينا القنابل . وكذلك الانجليز والامريكان . الجميع ألقوا علينا قنابلهم .

ـ الانجليز والامريكان ! هذا مستحيل . لم يكن هؤلاء أعداء لنا . بل كنا متحالفين معهم .

ـ القى الايطاليون القنابل على اليونان . ثم ألقى الألمان قنابلهم على الايطاليين بعد ان استسلموا . أما عن الانجليز والامريكان ، حلفاؤنا ، فقد ألقوا علينا قنابلهم كى يسحقوا الألمان الذين كانوا يحتلون جزيرتنا . كيف يمكنك اذن الاهتداء الى المسئول ؟ هذا ما جعلنى أقول لك ان الحرب ذاتها هى التى جنت علينا .

تمتمت الحمامة البيضاء حزينة :

ـ الحرب .. أجل ، الحرب .

ومضى زوجها يقول :

ـ وهكذا احترق هذا المبنى العريق القديم ، ودمرت ذخائره .

ـ هل كان به كتب كثيرة ؟.

ـ عشرات الآلاف من الكتب ومثلها من المخطوطات . كانت

السجلات شاهدا على تاريخ جزيرتنا منذ الايام المعروفة بالعصر الفينيقى . ومن بعده عهد نابليون والقياصرة . ثم عصر الحاكم والبريطانيين .

تنهد بيريكليس . وتنهدت اسباسيا من بعـده . لم يطق فيلوس مرارة نظراتهما ولم يكن يعرف كيف يقدم لهما تعزية . ألقى نظرة فيما حوله : فرأى شجرة التين ذات الاغصان الممتدة الملتوية . وكى يقول شيئا ابدى هذه الملاحظة :

ـ لديكما على الاقل شجرة التين الرائعة هـذه . التى تعطيكما تينا شهيا .

اجاب الزوجان قائلين :

ـ أننا لا نأكل منها أبدا . فكما تعرفين أيتهـا الحمامة الوسيمة . لا يمكن لشجرة التين ان تنضج ثمارها الا اذا وجدت شجرة تين أخرى لاخصابها . ولهذا فان شجرتنا الرائعة هذه ، فى عزلتها بين الخرائب ، لا تطرح ثمرا أبدا . ولكنهـا تمنحنا ظلها . وتجمل هذه البقايا المتفحمة . أنها تمد فى يأس أغصانها العفيفة عبر الفتحات الخاوية ، وتذكـر المتنزه بأن مكتبتنـا القديمة ما عاد لها وجود . أنها سواعد القدر تلك التى تمدها شجرتنا هذه لتومىء وتتوسل . أنها ، ان شئت ، تستجدى .

ـ وأنتما تقيمان هنا دائما ؟

أجابا بصوت واحد :

ـ أجل ، دائما • كيف يمكننا ان نترك معبد الفكر القديم هذا ، حيث ولد أسلافنا وربوا ، ومن بعدهم نحن بدورينا ؟

قطب فيلوس حاجبيه • تذكر حمام فينيسيا • ان الحمام الذى يعيش هنا يعتبر بدوره ارستقراطيه ؛ ولكن مع هذا الفارق أنه نحيف وفقير ، نظيف ومتواضع •

قال بيريكليس :

ـ هل ثمة ما لم يعجبك فيما قلناه ؛ أيها الأخ الغريب • ما الذى لم يعجبك ؟

تردد فيلوس ، لكنهما الحا عليه أن يجيب • ادرك ان هذين المسكينين بحاجة فى عزلتهما الى أن يتجاذبا الحديث مع آخر • وأخذ يحكى لهما عن حياته ، والتدريبات التى يمارسها مع رفاقه، ورحلاته الى فينيسيا ولندن ، لمقابلة ارستقراطيى بنى جنسهم ومبلغ خيبة ظنه فيهم •

واختتم حديثه بقوله :

ـ اننى منجذب اليكما ، ولكن أخشى أن تكون أواصر القربى بينكما وفينيسيا قد عكست بعضا من ظلال ارستقراطيتها عليكما • كنت معجبا بهم كثيرا قبل ان أعرفهم لكنى الآن لا استطيع ان أطيقهم •

تبادل الزوجان نظرة رضاء رقيقة ، دون ان يبدو عليهما أدنى كدر لكلام فيلوس •

استطرد الطائر ذو الريش البراق يقول :

ـ أنت على خطأ . أنك انما ألتقيت فى فينيسيا بارستقراطيى الدم . وهؤلاء يعتصمون بأمجاد أسلافهم ويؤسسون ادعاءاتهم على هـذه الامجاد الماضـية فحسب ، دون أن يؤدوا هم شيئا بمجدهم . وعندئذ ، فهؤلاء لأنهم لا يعتمدون فى وجودهم على أنفسهم سرعان ما يفسدون وينحلون . ولكن ما من مجتمع بلا استثناء . يمكن ان يكتب له البقاء بغير ارستقراطية ، بغير صفوة ممتازة من ابنائه . وذلك لأن ثمة أنواعا عديدة من الارستقراطية. أنت على سبيل المثال ، تمثل ارستقراطية السيف ، كمـا يقول البشر .

سأل فيلوس دهشا :

ـ السـيف ؟

ـ أجل السيف ، أعنى الشجاعة . وسيفك أنت جناحاك . فأنت قاهر المسافات والرياح ، بل وقاهر الصقر ذاته . انك تهدى مجتمع الحمام الى طريق البسالة . وهذا نبـل وخير فى الوقت ذاته . كيف اذن لا تكون لك عقلية ارستقراطية ؟

لم ينبس فيلوس بكلمة . كان هذا قريبا ممـا قاله له فى لندن الاميرال الكبير نيلسون .

ملأ فيلوس صدره بالهواء زهوا . نفخ أوداجه . دار حول

نفسه على ساقيه اللذين لا يهدأ لهما قرار ، وطوح رأسه عاليا • ثم توقف فجأة • شعر بالخجل • يا لها من حماقة ان يختال هكذا ، وعلى الأخص أمام حمامتي كورفو . هاتين الحمامتين الوقورتين المتواضعتين • انكمش • ألصق ريشه بجسمه . وأخلى صدره من الهواء • حك فى ارنباك رأسه بطرف جناحه الأيسر • وقال :

ــ هكذا تسير الامور اذن • ربما كنتما على حق بمفهومكما عن الارستقراطية .• ولكن أنتما الى أى ارستقراطية تنتميان ؟

راح بيريكليس يتابع حمامة أخرى على النافذة المواجهة ، فلم ينتبه الى ما قاله فيلوس .• لكن أسباسيا رفعت فى حزم رأسها الصغير الرشيق الأبيض ، وأجابت نيابة عنه :

ــ نحن ، ياسيد فيلوس ، فقراء • نعيش فى عزلة محاطين ببضعة أزواج من أمثالنا • نحن ارستقراطية الفكر •

ــ ماذا يعنى هذا ؟ ما اهتماماتكم ؟

ــ يعنى هذا اننا نحيا فى سكينة وتواضع • ننصت الى همهمات الريح ، الى ارتجافات البحر ، الى زقزقة العصافير ، يعنى هذا أننا فى هذا المكان الذى كان ذات يوم عامرا بالفكر والحكمة ، نتأمل المصير والقدر •

ــ وهذا يكفيكم ؟

اشترك بيريكليس فى الحديث قائلا :

ــ ولم لا . أيها الأخ الغريب عن هذه الديار ؟ ربما كان فى هذا الكثير أيضا • أكثر مما تستوعبه حياة قصيرة . نتأمل فى هدوء دون ان نسبب ضررا لأحد ، وهل فى الحياة ما هو أكمل من ذلك ؟ وبالاضافة الى هذا . فاننا ببقائنا هنا أوفياء للثقافة وللدار التى كانت معبدها المقدس . نؤدى غاية أخرى • أننا برفضنا للحياة وسط الجموع . وللمتع العابرة . نصبنا أنفسنا حراسا لهذه الاطلال المجيدة •• ونحن . الحمام الوديع ، نرمز فى هذا المكان بالنسبة للمخلصين للروح ، الى رصانة الفكر التى تحيا على الرغم من دمار الحروب • وعلى نحو ما ، من هـذه النافذة العالية الخالية . نذكر العالم بمجرد تواجدنا هنا ، أنه ما دامت تبنى العديد من العمارات . فيجدر أن يتخذ القرار يوما ما باعادة بناء وتزيين هذه المكتبة القديمة الشهيرة •

صاح فيلوس بحماس :

ــ يا لها من مهمة نبيلة تلك التى اخذتماها على عاتقكما ، ومما يزيد من نبلها انكما تؤديانها بكل هذا التواضع ، وهذه الرزانة •••

قالت الحمامة البيضاء بنبرة ساخرة :

ــ أرأيت ، أرأيت ، يا سيد فيلوس ؟

ــ ماذا رأيت ؟

ــ أننا بدورنا ارستقراطية ، ارستقراطية الفكر •

مال بيريكليس يتمتم بضع كلمات فى اذن اسباسيا . التى سارعت بالدخول الى عشها . لم يتبين فيلوس ما قاله لها بيريكليس ، لكنه أحس بأن هذا الاخير يعاتب زوجته على أنهما لأول مرة ، لم يسلكا سلوكا ارستقراطيا حقا .

ولم يفهم فيلوس جيدا ماذا أراد الطائر ان يقول له : أكان يعنى ان الارستقراطية الحقة لا تتباهى بذلك ؟ ومع ذلك فان ارستقراطيى فينيسيا ، المنتفخين زهوا بأهميتهم ، كانوا يعلنون عن أنفسهم حتى بالصياح من فوق الاسطح . ولا شك ، اذا لم يكن قد أخطأ ، فان موقف بيريكليس المثالى كان أكثر لباقة . وعلى كل حال ، فلم يكن الامر سوى شجار صغير بين زوجين ، فليتظاهر بأنه لم ير ولم يسمع شيئا . كما أنه ألقى نظرة الى الشمس ، وتيقن أن النهار ينصرم ، وان الأوان قد آن للرحيل . استرد جناحاه حيويتهما بعد ان استراح من السفر ، لكن الطريق الى يانينا كان طويلا .

جال قليلا فى أحد الاركان ، وهو يفكر ، خفيض الرأس ، ثم قال :

ـ هل تعرفان انكما تركتما فى انطباعا عميقا . ومنحتمانى فرحة كبيرة ؟ أنى فخور بأن من بيننا ارستقراطية ممتازة من أمثالكما . أريد أن أقول ارستقراطية الفكر .

نظرت اليه الحمامتان ، وقد بدا عليهما التأثر ، فقال لهما :

ـ لا أستطيع أن اسدى لكما عونا فى تأملاتكما . لاننى خلفت للحركة وللقليل من التفكير الذى تحتاج اليه فحسب . على أنه قد يكون بامكانى أن اسدى اليكمـا بعض العون فى تحقيق هدفكما ، ألا وهو أعادة بناء المكتبة .

اقتربت منه الحمامتان . وقد بدا عليهما التأثر الشديد ، وقالا له :

ـ ايها الأخ الغريب عن هذه الديار ، وددنا لو استطعت ان تساهم فى ذلك ! ستفعل بنا خيرا كبيرا ! ولكن كيف يمكننا الاتصال بك ؟

ـ سأحدث السيد ايكار فى الامر ، وهو رجل محنك ، متحمس لكل ما له شأن بالحمام .

تعلقت أنظار بيريكليس واسباسيا بمنقاره . لكن بارقة شك ومضت بعيونهما . وقف فياوس مستاء . فربما فى حماسه وعد بما ليس فى طاقته . لا شك أنه كان يتحرق شوقا لمساعدتهما ، ولكن كيف ؟ ماذا يقول للسيد ايكار ، وكيف يفاتحه فى الامر ؟ لابد من العثور على فكرة . أو على الاقل ، لابد من اعطاء أمل الى الزوجين اللذين ثبتا عليه نظرات جمعت بين التوسل وعدم التصديق .

كان يعرف أن فى مثل هذه المواقف الصعبة ، يحك الناس البسطاء رؤوسهم ويقسمون بكل الآلهة . لكنه كان يعرف أيضا

ان الناس الأكثر رهافة يأخذون الذقن بين أصابع اليد اليمنى ويستغرقون فى التفكير صامتين . أو يتظاهرون بذلك . وما دام قد رقى الى مرتبة الارستقراطية . فكان لزاما عليه ان يسلك هكذا . ومن ثم أسند ذقنه على جناحيه الطويلين وظل صامتا يبحث وينقب عن حل من الحلول .

وفجأة : يا لروعة ما حدث ! اذن فمن الذقن تنبثق الافكار . عندما يصبح المرء ارستقراطيا ؟ جاءه الهام مضىء . فبدر الى عرضه عليهما :

ــ أتعرفان ما هو محفور على شاهد ضريح اللاقيد يمونيين فى هيرموبيلى ؟

ــ بالطبع !

« يا أيها الغريب . اذهب وقل للاقيد يمونيين
أننا نرقد هنا
لاوامرهم أوفياء » .

ــ حسنا ، ألستم هنا لمعبد الفكر حراسا مثل اللاقيد يمونيين؟ مع الفارق ان هؤلاء يمكن ان يبعثوا الى الحياة : عندما يهتم بمصائرهم بعض الانسانيين الاصلاء ؟

ــ لا شك فى ذلك ، ولكن ...

ــ سوف اقترح على السيد ايكار ان يأتى ويثبت على هذا المبنى لوحة تحمل كلمات شبيهة ، تجرى بالآتى :

« يا أيها الغريب ، اذهب وقل للاثينيين
اننا مقيمون هنا
ولاحلامكم أوفياء » .

صفقت اسباسيا البيضاء بجناحيها في حماس . ولكن بيريكليس الأنوف بدا مترددا . رغم فرحه بهذا الاطراء . ثم خلص الى القول :

ــ لا أجد ان هذا سوف يكون مناسبا . فحتى لو كانت قراءة هذا النص مفيدة لكل المسافرين الذين سيمرون من هنا ، الا أنني أعتبرها صفاقة ان تنقل نقلا يكاد يكون حرفيا ما هو مكتوب على قبر ليونيداس والثلاثمائة رفيق .

طوت اسباسيا جناحيها ، كما لو كانت نادمة على التصفيق. أما فيلوس فنظر الى بيريكليس بكثير من الفهم والتقدير ، وقال له :

ــ انك ارستقراطي أصيل من ارستقراطيي الفكر ، ولهذا فانك لن تكتب ابدا كلمة مثل هذه على شاهد قبرك . ولكن هل تعتقد ان المحاربين المتواضعين الذين ماتوا من أجل الواجب والشرف هم الذين تخيلوا ما كتب على شاهد ضريحهم ؟ ربما كل ما كانوا سوف يكتبونه على قبرهم .

« هنا يرقد ثلاثمائة من اللاقيد يمونيين » أما العبارة العبقرية « لأوامرهم أوفياء » التي تكتسح معها الفكر والروح ، فقد

ابتدعه رجال عمليون . لأن هؤلاء يعرفون ان التضحية لا تكفى وحدها لاشعال القلوب : فهى بحاجة الى شرارة من الكلمات . بيريكليس أيها الصديق الحكيم المتواضع دعنى أتصرف . ان شاهد خلودك قد أعد .

ظل بيريكليس الخجول صامتا ، ولكن النظرة التى صوبها الى فيلوس كانت جد مشحونة بالاحاسيس . سالت دمعة من أحد ياقوتتيه الصغيرتين . على ان تعبيرات وجهه لم تكن حزينة ، بل على العكس كانت تشع بالفرحة والأمل .

انفعل فيلوس ، وقال له :

ـــ بيريكليس ، يا أخى ، أشكرك على نظرتك وما فيها من تعبير .

ـــ وماذا رأيت فيها حتى تشكرنى ؟

ـــ أنها تشع فرحا وأملا . وأتساءل أى قوة يمكن ان تكون لهذه الفرحة ولهذا الامل ، حتى تبعث فى ملامحك ؛ التى هى فى العادة هادئة ؛ كل هذه الحمية ، وتغوص بى أنا ايضا فى مثل هذا الحماس .

أدلى بيريكليس الحكيم بالايضاح الذى يطلبه فقال :

ـــ ان الفرحة والأمل هما وحدهما القادران على ان يستحثا اللقاء والتضافر بين ارستقراطية الفكر وارستقراطية العمل . لان كل منهما اذا أخذ على حدة ..

لم يكمل بيريكليس عبارته ؛ قانعا بأن يلقى نظرة تفيض بالتعب الى الخرائب المحيطة ، ثم امتلأت نظرته حيوية وهو يديرها الى فينوس • ويثبتها رأسا على عينيه ، كما لو كان يرجوه ويمنحه حبــه •

أحس فيلوس من جديد بأعماقه تضطرب ، لكنه لم يترك نفسه تستسلم لعواطفه اذ أنه لمح الشمس تمضى فى مسيرتهــا المهيبة واللانهائية • انحنى لهما انحناءة كبيرة ، وهو يثنى احدى ساقيه . ماسحا الحجر من تحته بجناحه الأيمن • ثم قال :

ــ أحييكم أيها الأخوة الاجلاء • ان صــــوت الواجب ينادينى • يجب على ان أرحل دون ابطاء • فالطريق طويل •

قال له بيريكليس بلهجة اعجاب :

ــ طويل ؟ ان طريق العمل ليس له آخر •

وأضافت اسباسيا :

ــ وهو متنوع الاشكال •

ــ معكما حق ، انتما الاثنان • ليس له من آخر ، وهــل يعرف العمل نهاية ابدا ؟ ومتنوع الاشكال • لأن مسيرتنا عمودية عندما نتبارى فيما بيننا • سواء قادتنا الى الفضاء أو الأرض• وهى أفقية عندما نطير فى سفر ، ومتعرجة عندما نصارع الصقر • استطيع ان اقول أكثر من ذلك بكثير عن الطريق الرائع الصعب،

طريق العمل والنضال . ولكن سامحانى ، ما عاد لدى وقت لمواصلة هذا الحديث .

قال بيريكليس مبتسما :

ـ بالطبع ، فلو كنت من أهل الكلام لما كنت من أهل العمل . لقد حققت لنا سعادة كبرى . يا سيد فيلوس ، أيها العزيز القادم من أبيروس . ولهذا فنحن نحييك .

ـ وأنا أيضا أحييكم أيها الاخوة . يا أهل كورفو المبرزين، أترككم على خير !

وبوثبة متحمسة عبر النافذة الخاوية بسور معبد ارستقراطية الفكر اندفع يطير فى طريقه الى الابواب الموصدة لابراج الحمام فى يانينا ، حيث أصبح يعرف الآن أنها مقر ارستقراطية العمل .

وعندما عاد السيد ايكار بعد الظهيرة . ابتهج بلقاء حمامته المفضلة ، وتبادلا عبارات الترحيب الحار . ثم سأل :

ـ احك لى سريعا ، ماذا رأيت أثناء اجازتك ؟

فاجاب فيلوس ، وقد اكتست قسماته بمسحة من الاستغراق فى التفكير :

ـ ماذا أحكى لك يا عزيزى الغالى السيد ايكار . رأيت أشياء غريبة كثيرة ، لن تصدقنى لو اخبرتك بها .

ـ أؤكد لك أننى سوف أصدق . احك .

ـ سأخبرك غدا عندما يرتاح رأسى من عناء السفر ، بواقعة اريدك ان تسرع بمعرفتها حتى تهتم بها . أما اليوم ، فانى أكتفى بأن أخبرك ان حصيلة رحلتى هى : اننى عدت ممتلئا بالحكمة .

قال له سيده معابثا :

ـ حسن ! لعلك حضرت بعض المحاضرات بالجامعة ؟ هل حصلت على بعض الشهادات ؟

لوى فيلوس وجهه بازدراء وقال :

ـ منذا الذى يحدثك عن الجامعة ؟ انها تقدم معرفة عقيمة . انها لا تعلم الحكمة ، بينما اقول لك اننى عدت ممتلئا بالحكمة. وسوف تتبين ذلك بنفسك .

ـ كيف ؟

ـ على سبيل المثال ، توصلت الى يقين ، أصبح الآن ايمانا راسخا . يجب أن اصرف النظر نهائيا عن كل أجازة أو سفر ، من أجل البحث والتقصى . منحت لى فرصة عظيمة ، ألا وهى اننى كلفت بمهمة نبيلة للغاية : على ان أعمل بمنتهى الجرأة . إن جنتى هنا ، فى برجك . وليس فى أى مكان آخر . والسعادة بالنسبة لى تتمثل فى الحياة التى أحياها . واذا أردت ان أوضح لك بلغة أكثر فلسفية ، فاننى أقول ان السعادة التى لا سعادة غيرها ، هى السعادة التى نجدها فى أنفسنا . والآن ، تعال ، ناد

الحمام بسرعة . أنها ساعة طيران الغروب . سوف ترى كيف سأطير هذا المساء .

ورأى السيد ايكار طيرانه ذالك المساء ، وأعجب به أشد الاعجاب . لم يؤد فيلوس من قبل قط طيرانا أكثر اتقانا مما أداه ساعة الغروب فى ذلك اليوم .

٧

ناحيـَة المداخـن

جثم على البحيرة ضباب كثيف . كان ساكنا فيما عدا بضع مزق منه تقطعها فجأة هبات من الريح . تقودها نحو ارتفاعات المدينة المتحررة من ربقة المباني . تدفعها بجفاء فى الازقة ، لتعلو بها على أسقف المنازل وعبر أشجار الصنوبر التى تكسو التل ، حتى تتلاشى تلك المزق و تتبدد فى الفضاء . وربما كانت هذه المزق المنتزعة من الضباب الكالح والمستسلمة لهبات الريح تهديدا من جانب الضباب موجها الى الأحياء العالية التى كان موقعها يمنعه من ان يطولها فيخنقها تحت وطأة جرمه الثقيل .

مزقة من هذا القبيل ، ذلك الصباح ، فى ارتفاعها السريع صعدت حتى حديقة السيد ايكار ، فى الساعة ذاتها التى يؤدى فيها الحمام طيرانه الصباحى . كان السيد ايكار رافعا عينيه الى السماء ، مثبتا اياهما على سرب المتبارين البارع ، لكنه لم يره يعدل مساره فى طريق العودة ، ومن ثم تراخى فى اطلاق صفارة الرجوع . وظل ينتظر طويلا حتى أحاط الضباب بالبيت وغلف

البرج قبل ان ينزل الحمام . وفجأة ، كفت الريح عن الهبوب . تمدد غطاء الضباب ببطء شديد ، ولم يكن انقشاعه بقريب . لعل فيلوس تواطأ مع الضباب ، وطلب منه أن يفعل ذلك لامر فى نفسه !

ذلك أنه فى مثل هذه الحالات ، يكون للحمام الذى لايعود الى برجه عذر لا ينازعه فيه أحد ، فسوف يزعم أنه ضل طريقه . ذهب السيد ايكار الى عمله تاركا طعام الحمام على الارض . وكل ما كان على الحمام ان يلتزم به هو ان يكون متواجدا لاداء طيران المساء . ولم يكن بالامكان اذن اتهام فيلوس بعدم اطاعته الاوامر ، ولا بأنه كان قدوة سيئة ، ولا بأنه طلب يوم أجازة اضافية ! ولهذا كان حقا ان يفترض أنه أمر الضباب بأن يثقل خطاه !

كان فيلوس يريد أن يزيد أيام حريته يوما آخر . بل إنه كان يريد لذلك يوما مثل هذا يشتد فيه البرد ، وتوقد فيه المواقد . ولم يكن ذلك لشاعرية الدخان المتماوج من المداخن ، مثل ثعبان يتلوى صاعدا الى السماء . حقا ان هذا الدخان شاعرى ، ولكن منظره مألوف لديه . بل كان يريد يوما مثل هذا كى يكتشف لماذا فى بعض المنازل تقذف المداخن دخانا كثيرا ، وفى البعض الآخر تقذف قليلا جدا من الدخان ، وفى البعض الآخر لا يصعد من المداخن دخان على الاطلاق . وبادىء ذى بدء ، لماذا فى ذلك المسكن الانيق المنزوى فى عزلته هناك ، حيث ينبح

كلب بلا انقطاع . ندر الدخان كثيرا . بل ولم يعد سوى خيط رفيع اليوم .

توجه فيلوس الى تلك الناحية . لم يكن يتصاعد من المدخنة الشامخة لتلك الدار الفسيحة التى حط عليها سوى دخان قليل . سمع فيلوس حديثا ينبعث من الداخل . فأرهف السمع . وفد صوت طفل يقول :

ــ يا أبى ، فلنضف الى المدفأة حطبة واحدة .

ــ حطبة ثانية . أيها المجنون ؟

ــ لكن الجو بارد ، يا أبى .

ــ بارد ! البرودة لا تجلب نقودا ، والخشب يكلف غاليا . وليس فى متنـاول الجميع . والنقود نقودى أنا ، وأنا الذى أكسبهـا .

ــ ارجوك ، يا أبى ، انى ارتعش .

ارتفع صوت امرأة يقول

ــ هيا ، يا عزيزى ، ضع فى النار مزيدا من الخشب . اننا فى الصباح ، والضباب مخيم .

أجاب صوت الرجل بعنف :

ــ أين رأيت ضبابا هنا ، على ارتفاع مثل هذا ؟ انك تربين أولادك تربية سيئة . يا له من ترف ! ما هذا الهراء . حطبتان معا فى المدفأة ! حذار ان تحرقى أكثر مما أعددت والا فعند عودتى، الويل لكما !

سمع فيلوس وقع خطوات ثقال ، ثم اصطفاقة باب يغلق . وبعد ذلك ندت تنهيدة . عاد صوت المرأة يقول :

ـ تعال على ركبتى ، يا حبيبى . تعال لتتدفأ فى حضن أمك التى تحبك. فلست سوى برعم وردة تفتح توا، وترتعش. لست سوى طائر كناريا صغير ، يرتعد جناحاك الحريريان . أنت أمير صغير : أجمل الامراء الصغار على الارض ، ولا تحتمل البرد . حقا ما من أم أخرى فى الوجود لها ابن صغير مثل ابنى .

وسأل صوت طفل ، واه ، ورقيق ، ملاطفا :

ـ وأى ابن صغير آخر له أم مثلك ؟

ثم سمع فيلوس صوت قبلة كبيرة .

بعد بضع ثوان ، قرر فيلوس ان يرحل . فقد أحزنه كثيرا أمر ذلك البيت الذى قال له السيد ايكار ان ساكنه واحد من أغنى تجار المدينة . فليذهب الى الجحيم ، هذا البخيل القذر !

ولكن ما ان سمع كلمات المرأة حتى رق قلبه ، وسرت فى جسده الصغير تحت الريش عذوبة غير مألوفة . وبدلا من ان يرحل نزل الى حافة النافذة ليرى تلك التى تنطق بمثل هذا الكلام الرائع . أو بالأصح هذا الكلام البسيط . وليس فى الامكان أبسط منه . ولكن لماذا اذن هز هذا الكلام عواطفه الى هـذا الحد ؟ لماذا جعله يحس بالدفء فى هذا الجو الضبابى البارد ؟ لماذا بددت عذوبته المرارة التى أشاعها البخيل الكريه رب هـذا

البيت ؟ كم من تساؤلات اثارتها بضع كلمات عادية ! تساؤلات تظل بلا أجابة ، حتى بالنسبة لطائر رأى الكثير من أمور الدنيا ! ولكن ماذا يهم ! سوف ينزل الى حافة النافذة .

ونزل . وما رآه سلب لبه وأدهشه .

فى كرسى مشقق رث ، جلست امرأة شابة ، تتشح بشال يلتف حول كتفيها . لم تكن قسماتها جميلة ، بل عادية . ولكن عندما يدقق المرء النظر اليها ، يكتشف فى وجهها مسحة من الجمال غير محددة . كانت وضاءة المحيا . ولا يمل الرائى من النظر اليها . عيناها بركتان من حلاوة لا توصف . أما ابتسامتها، فكانت تنطلق منها أغنية البهجة .

ضمت المرأة الشابة بين يديها صبيا صغيرا راحت تهدهده بحركة خفيفة ، بينما احتواها الصغير بنظرة مفعمة بالثقة والسعادة . كانت تهمس فى أذنه مبتسمة ، بينما راح هو يتأملها معجبا ، متعلقا بشفتيها وعينيها . ما الذى كانت تهمس به اذن ؟

حكاية . ولكن أى حكاية ؟ راح فيلوس يعتصر ذهنه كى يخمنها . وفى النهاية خيل اليه أنه عرفها . وأى حكاية تحكيها امرأة ليست بجميلة ، ولكنها ــ كما لو كان ذلك بفعل السحر ـ صارت جميلة ؟

لابد أنها حكاية الحب ! الحب الذى يدفىء دون حاجة الى قطع أخشاب كثيرة فى المدفأة . الحب الذى لا يشترى بالمال ، مهما كان مبلغه ، ومهما كان ثراء من يملكه .. الحب الذى اما

أن يوجد بداخلك أو لا يوجد أبدا . الذى يحتوى من الحرارة قدر ما فى الشمس ، ويبثه مثلما تبثه ، بسخاء وبلا حساب .

لم يستمع فيلوس الى الأم تروى هذه الحكاية . ولكنه رأى بعينيه صورة هذا الحب مرتسمة أمامه . بل ونسى اشمئزازه من البخيل العجوز . واعتبر احساسه هذا تجنيا منه وظلما ، فهذا الرجل مسكين ، ما دام لا يملك ادنى قدر من الحب بداخله . وما دام لا يملك شيئا منه بداخله ، فمن أين يعطى اذن ؟ وكيف يبذل ؟

ألقى فيلوس نظرة أخيرة مبهورة الى الغرفة الباردة ، ولكنها مفعمة بالحرارة الانسانية ، ثم طار فى الضباب الصباحى الذى كان ينبسط من حوله .

أين يذهب الآن ؟ لم يكن يحتمل الامر أى تردد . بعد البيت الذى لا يخرج من مدخنته دخان ، سوف يذهب ليرى البيت الذى لفظت مدخنته دخانا كثيرا طوال هذه الايام الاخيرة . وكم كان الدخان يخرج من المدخنة كثيفا اليوم أيضا . أنه مسكن الحداد الشاب الذى زوجه السيد ايكار العام الماضى .

حط فيلوس على المدخنة الا أنه لم يستطع البقاء هناك ، فقد كانت تبصق دخانا كثيرا حتى كاد يموت من الاختناق . دار حول المنزل الصغير ، وتبعا لسعة النوافذ حدد مكان الغرفة

الرئيسية . وربما كانت الوحيدة المشغولة بساكنى البيت . وما يجرى هناك هو الذى يجب أن يراه .

حط بخفة على احدى حواف النافذة . وما لمحه هناك أذهله. لم يكن بالغرفة مدفأة صغيرة، بل مدفأة كبيرة تضطرم فيها نار قوية . أمام هذه المدفأة بدا الحداد كما لو كان يتصارع مع زوجته . كانا يمسكان قطعة خشب ضخمة . ويحاول كل منهما ان ينتزعها من يدى الآخر ، دون ان يكفا عن الضحك . كانا يتصارعان ويتضاحكان . وعلى مبعدة قريبة منهما رقد طفل رضيع فى مهد متواضع معتنى به .

وللحظة نجح الزوج فى انتزاع قطعة الخشب من يدى زوجته ، وبضحكة انتصار ألقى بها الى النار . جلست المرأة ضاحكة ، وهى تلهث .

قالت له :

ــ انك مجنون ! مجنون ! مدمت ستخرج الآن الى عملك . فلم يكن أنت الذى تقرر ما اذا كانت النار بحاجة الى قطعة أخرى من الخشب . ثم انك تصر على الاحتفاظ بهذه المدفأة الكبيرة . بينما كان يمكن لمدفأة صغيرة ان تعطينا ما نحن بحاجة اليه من دفء ، وبتكاليف أقل .

جلس بدوره وأجابها معابثا :

ــ أنت المجنونة ! المجنونة تماما ! أولا ، أنه انا الذى أقرر

لأنك زوجتى . والصغير ابنى ، وانت ترضعينه • وثانيـا انت تصدعين رأسى بطلب الاستغناء عن المدفأة الكبيرة التى تسمح لنا بالاستفادة من كل حطبة تلقى اليها ، فى حين أننا بمدفأتك الصغيرة لن نرى للحطب أثرا . ولا من النار دفئا •

قالت :

ـ لكننا بذلك نستهلك خمسه أضعاف بل عشرة أضعاف كمية الخشب •

ـ ونحصل على متعة أزيد خمسين ضعفا ، بل ومائة ضعف أيضا •

ـ ولكنك مضطر ان تضاعف عملك من أجل ذلك .•

ـ بل من أجل ان أزيد من سعادتى ، وأنا أرى وجنتيك تكتسبان بلون اللهب ، وعناءك يقل مع كل قطعة خشب ألقى بهـا •

نهضت المرأة الشابة ، طوقت زوجهـا بذراعيها ومنحته قبلـة •

قال لها وهو يحتضن خصرها :

ـ أرأيت ، يازوجتى • لست أديبا ، لكننى ازعم ان فى هذا العالم الملعون لا يخرج الامر عن ان يكون هكذا .• لايكفى ان يكون بيتك دافئا ، بل يجب أيضا ان تكون النـار فى المدفأة

جميلة ومواتية للاستغراق فى الاحلام . حتى لو احتاجت هذه الاحلام جهدا مضاعفا من العمل .

ـ هذا حق ! هاتان اليدان تعطيانا الكفاية . ولكن الاحلام لها الاولوية . اذ لو ألغيناها ، يفقد كل شيء رونقه .

أحس فيلوس مزيدا من الدفء والبهجة يدخلان الى قلبه . كم كانت الكلمات التى تكلم بها الحداد جميلة رغم بساطتها ! كم هو مختلف عن الرجل الآخر ! ذلك الذى لا يكترث أن تعانى امرأته وأبنه من البرودة . أما هذا الرجل فلم يكن يقنع بأن تنعم امرأته وطفله بالدفء ، بل عنى فضلا عن ذلك بأن يكون الدفء مبعثا للأحلام .

أليس من المحتمل ان يكون السيد ايكار قد أخطأ ؟ أليس الحداد هو الغنى والتاجر هو الفقير ؟ بالامكان أن يقال ذلك دون مبالغة . هل ارتكب سيده خطأ اذن ؟ هذا مستحيل . ولكن ليس للامر سوى تفسير واحد ، لقد ردد سيده ما جرى عليه القول مثـل كل اولئك الذين يتحـدثون عن الثراء دون ان يعرفوا ما هـو .

ودون أن يدرى كيف ، وجد فيلوس نفسه يطير فى الهواء سعيدا . سوف يذهب الآن الى مكان أبعد قليـلا . سـيزور مساكن لا تصدر عن مدافئها أدخنة . وكيف يكون الامر ممكنا ، والجو بارد الى هذا الحد والرطوبة تنخر فى العظام بهذه القسوة؟

حط على مدخنة بيت لا تقـذف دخـانا • انحنى على الفوهة السوداء وراح يتشممه • لا شيء • ما من رائحة تنبعث منها • لم تكن ثمة نار موقدة فى المدفأة • هل خلا البيت من سكانه ؟ سمع من أسفل صوتا يشبه همسا أو تأوها • غلبه الفضـول ، واندفع ليطل من النافذة ، انقبض قلبه وارتعدت فى الوقت ذاته فرائصـه •

جلس عجوزان الى منضدة خالية • تدثرا بشيلان وأغطية• واحتوى أحد هذه الأغطية أرجلهما معا • ارتدى كل منهمـا قلنسوة دس فيها رأسه قدر الامكان ، كما لو كان يود ان تنزل حتى كتفيه • تقدم بهما السن كثيرا • حاول الرجل العجوز فى لحظة ان ينهض • أسند احدى يديه على عصاه وأسند الاخرى على المرأة العجوز • ولكنه لم يفلح فى النهوض • واذ أنهكه التعب عاد الى جلسته من جديد •

وعندما استراح من عناء هذا الجهد الكبير ، قال :

ــ سيكون نيقوس هنا ظهرا •

ثم خيم عليهما الصمت • ظلا ساكنيين خائرى العزيمة • وقد خوت العينان ، وخـلا مظهراهما من أى تعبير سـوى تعبير الاستسـلام •

بعد قليل تمتمت المرأة العجوز :

ــ وماذا بامكاننا ان نفعل ؟

ودون ان يحرك الرجل العجوز ساكنا أجاب متنهدا :

ـــ لا شيء .

مدت العجوز يدا ضامرة وأسندتها على يد العجوز نافرة العظم ، دون ان تنظر اليه أو ينظر هو اليها .

أطلق فيلوس لجناحيه العنان هاربا . فقد عاين أشد المآسى قسوة . وحتى لو كانت المدفأة تعمل فان ذلك لم يكن سينتقص من عنائهما شيئا ، أو بعبارة أخرى . فان شقاءهما نهائى ولا برء منه . ألم ير حالات مشابهة فى برج الحمام ذاته ، حيث كان السيد ايكار يسهر على ان يوفر للمسنين من حمامه كل شيء ؟ ألا يعرف بعضا من أخوته الاعزاء ، من الابطال القدامى ، تقدمت بهم السن و ... ؟ من الافضل الا يذكر المصير الذى لاقوه . فما الجدوى من ذكره ؟ كان السيد ايكار يجلب اليهم مثلما يجلب لغيرهم من الحمام الطعام فى العش . كما منحوا أكثر الاعشاش ليونة . ولكن ما الذى كان يجديهم كل ذلك ؟ المصير لا يرحم ، ولا صلاح لتعاستهم . ويجدر عدم التفكير فى الامر . فالمخرج الوحيد هو قبل كل شيء ان نكف عن التفكير ، ثم نعمد الى الرضاء به ، ولكن علينا قدر الامكان ان نطرد عنا التفكير فيه .

ناده جناحاه من جديد الى بيت لا تلفظ مدخنته أدنى سحابة دخان . على أنه بأى ثمن لم يكن يريد ان يرى مشهدا

حزينا مثل سابقه • ذلك الذى كان مثيرا للحزن أكثر من مشهد الموت ذاته •

ولكن ، ربما اختلف الامر هذه المرة • لا شك ان هـذا البيت غير مسكون • كان فسيحا ، لكن كثيرا من ألواح الزجاج مهشمة • وما من أثر لدخان ينبعث من موضع فيه •

دفع حب الاسـتطلاع فيلوس الى ان يتفحص البيت عن كثب : لأنه لم ير بيتا مهجورا قط • وسـوف تكون معاينته تجربة مثيرة •

وكان ما اكتشفه فيلوس غريبا حقا ، بل وأشد غرابة من كل ما كان متوقعا •

فى غرفة فسيحة ، حيث كانت المدفأة بلا نار ، والنـافذة مهشمة الزجاج ، جلس شاب يرتدى معطفا رفع ياقته • وانهمك يكتب • وبين الفينة والفينة كان يتوقف ، يضع قلمه بين أسنانه ، ويربت بيده على شعره الاشعث ، ثم يعـاود الكتابة • مظهره وضــاء • ألم يكن يحس بالبرد اذن ؟ كان فيلوس يـأمل على الاقل ألا يكون ازاء مجنون • ولكنه ظل مذهولا • كانت المدفأة فى مكانها ! ولابد ان يكون فى البيت العتيق قطع أخشاب كثيرة يمكن استخدامها للتدفئة • الامر مثير للعجب ! لم يعـد فيلوس يتمالك نفسه ، لابد ان يشفى غليل فضوله •

من الزجاج المكسور تسلل الى الغرفة • وبحركات خفيفة

من جناحيه جاء وأطل على الشاب عند أحد أطراف المنضدة القصية تناثرت أكوام من الكتب فى غير نظام • وفى الطرف المقابل لها كدست رزم الاوراق كتب عليها بذات الخط الذى يكتب به القلم فى يد الشاب • كان يملأ سطور الورقة التى أمامه بالكلمات ولكن دون أن يصل بها الى نهاية كل سطر • تساءل فيلوس « أهذا ما يسميه الناس شعرا ؟ أيكون هذا الرجل شاعرا ؟ » •

لم يتسع للشاب الوقت كى يفكر ولا حتى ان يلاحظ ، اعتدل فى جلسته وترك قلمه •. أمسك بورقته بيديه الاثنتين • كانت عيناه تومضان • بدا عليه كما لو كان قد فر الى عوالم أخرى ، ولكنه لما كان يستطيع ان يلمح فيلوس الذى كان جد قريب منه ، فان الطائر ابتعد قليـلا ، وذهب يحط على حافة المدفأة • ومن هناك ، سمعه يقول :

ــ بلا أدنى شك ، يجب ان اواصل العمل ، ولكن لدى الانطباع بأنها قصيدة جيدة • سوف أقرأها الآن بصوت عال من أولها الى آخرها •

وشرع فى القراءة • وراح صوته يتلون ويتبدل ، وكذلك ايقاع القائه للقصيدة • وعند الابيات الاخيرة ، صارت أنفاسه فى قوة الريح •

مضى فيلوس يستمع اليه وقد مط رقبته •

بحثا عن حيوات مفقودة

غارقين فى اليوم . عراة أمام الغد
نمضى بحث عن الماضى الوضىء
فى اطلال مدائننا .

رحلنا نرتدى نعالنا ودثار جنود الاغريق
فى أيدينا رمح ، أو قيثارة ، أو بردية
أو مجرد عصـــا متواضعة

طفنا بالشوارع والسوق والنواصى
وفى الحدائق البالية حول المسارح القديمة
شربنا نبيذ الازمان الغابرة
فى حقول الكروم الأنيقة أثناء مواسم القطاف المستحيلة
جنينا حبات العنب .

عيوننا ابتعثت فى المحاجر المنهدة .
وفى المعابد الاولى للفكر الانسانى
قدمنا القرابين والاضحية
وداعبنا الجاريات فى الأفنية المزهرة
ونحن نحيى فى الفجر ، على انغام مزامير البوص
انتصار الشمس المشرقة

صرنا بحارة ، وتجارا ، صرنا رجال سياسة
صرنا جندا وفرسانا ، صفقت لنا الجموع
ونحن الى ساحات القتال نمضى .
وفى بعض الاحيان صرنا أيضا حكاما
عشنا حياة المدنية بمختلف مستوياتها
ولكننا لم نضح خداما لاحد

وليس لاننا أردنا . ولكن هذا ما حدث دون وعى منا .

وكيف نضحى خدما . مادمنا نبحث بشغف عن بصيص ضوء ، عن طريق ، عن سعادة

غارقين فى اليوم ، عراة امام الغد !

* * *

وضع الشاب الورقة على المنضدة . وفك ياقته . ثم أزرار معطفه .

لم يتمالك فيلوس نفسه ان يسأل :

ــ ألا تشعر بالبرد ؟

ابتسم الشاب ذو العينين الوضاءتين .

ــ يا له من شعور غريب ! خيل لى ان أحدا وجه الى سؤالا . حسنا ، سأجيب كما لو كان قد وجه الى هذا السؤال حقا : كلا ، لا أشعر بالبرد . لا يشعر بالبرد أبدا من كان قلبه دافئا . لا يطول العذاب أبدا من كانت السعادة بداخله .

بدا لفيلوس كما لو كانت قد اشعلت فى المدفأة نار متوهجة، وان الدفء سرى فى كل شيء من حوله . جرى نحو الزجاج المكسور . اجتزه وصعد الى احجار السقف . لم يكن ينبعث أي دخان من المدخنة . ومع ذلك كان يحس بداخله دفئا كبيرا . لابد أنها حرارة القلب على حد تعبير الشاعر .

استدار فيلوس دافيء القلب مرتاح البال ، وطار عائدا الى برجه نحبيب .

٨

أسطورة الميلياجريد

عقب التدريب ، كان لحمام السيد ايكار الحق فى المكوث قليلا فى الحديقة للتسكع واللعب والاعجاب بالزهور أو لقضم بضعة أعواد من الحشائش اللدنة . وفى أيام الآحاد والاعياد ، لم يكن السيد ايكار يفتح دكانه ، ومن ثم كانت فترة الاستجمام تطول .

ذات يوم من أيام الآحاد ، قرر فيلوس ان يترك الحديقة بضع لحظات . لم يكن سيذهب بعيدا . سيذهب الى الفناء المجاور ، وكان لديه سبب خاص للذهاب الى هناك . فقد لاحظ ان طائرا على قدر كبير من الغرابة يتنزه فى أرجاء الفناء . طائر يشبه الدجاجة قليلا ، كما يشبه الحجل بعض الشىء أيضا ، ولكن دون أن يكون دجاجة ولا حجلا . كان أكثر بدانة من دجاجة ، بل وكان أضخم منها أيضا . كان ريشه كله بلون الرماد تناثرت عليه حبات بيضاء صغيرة . وكانت حركاته الوئيدة المتمايلة

لا تحلو من نبل . ولم يكن فى صيحته ما يشبه نقيق الدجاج ولا قطيط الحجل . وبصفة عامة ، لم تكن صيحته تشـــبه أى ينتمى هذا الطائر اذن ؟ ظل فيلوس على فضوله ، وأراد أن يعرف حقيقته .

ظل فيلوس على فضوله ، وأراد أن يعرف حقيقته .

استقبله الطائر الكبير بترحاب حار . بل ووجه اليه المديح لطيرانه ، وهنأه على ذيوع صيته ، وشكره على هــذه الزيارة الوديــة .

قال فيلوس :

ـــ كنت أريد المجىء منذ أمد . ولكن . ماذا أقول ؟ كان خجلى يغلبنى .

ـــ وما الذى يجعلك تخجل ؟

ـــ تبدو أيها الطائر منحدرا عن سلالة جد عريقة . لا أعرف شيئا عنك على الاطلاق ولا عن كنهك . أنت فريد نوعك ... أريد ان أقول ... لابد انك تنتمى الى سلالة نادرة .

لم يتأكد فيلوس جيدا مما اذا كانت تند من الطائر وهو يتكلم زفرة أو تنهيدة أو زقزقة ، ولكنه تضايق من ذلك بعض الشىء . على أنه سرعان ما استرد رباطة جأشه ، لأن الطائر الآخر كان يتحدث اليه بأدب جم .

ـ اذا كنت تصر علي ان اقدم لك نفسي وفقا للاصـول المرعية ، أعنى ألا أكتفى بذكر اسمى بل وان أسرد عليك أيضا نبذة مفصلة عن حياتى ، فان لدى الكثير مما يقال . أنا مدام ميلياجر .

ـ اذن ، انت من اناث الطير . تفضلى يا سيدتى . قصى حكاياتك كلها .

ـ سأعرفك أولا ان هذا الاسم هو اسمى فى اللغة الفصحى التى كتب بها الدستور وقوانين الدولة . أما فى اللغة الشعبية الحية فان اسمى هو ميلياجريد وسأرجوك ان تنادينى بهـذا الاســم .

ـ كيف كان بمكنى ان اعرف كل هذا ، يا مدام ميلياجريد؟ انى منشغل بأمورى الصغيرة ، أمارس التدريب على الطيران ، وكلما كان فى مقدورى أحاول ان استكشف العالم . وكى أكون أمينا فيما أقول ، لا استكشفه فى تفاصيله التى من هذا القبيل ، اذ لو فعلت لضعت . أننى لا أبحث فى الواقع الا عما يهمنى . ولهذا .. معذرة .. لست منكبا على الجرى وراء كل هـذه التفاصيل اللغوية .

هزت الانثى الضخمة رأسها فى عصبية .

ـ ولما كانت اللغة الفصحى الرسـمية مسـتقاة من اللغة اللاتينية فأنهم يسموننى أيضا ، من قبيل التبسيط ، الدجاجة الافرنجية .

ــ آه ، يا سيدة الدجاج ! ولكن أيا كان الاسم الذى تحملين ، فانك تثيرين اهتمامى • فهل تتكرمين بان تروى لى حكايتك ؟

بعد زقزقتين أو ثلاث زقزقات أشبه بتنهدات ترقى الى مرتبة الزفرات • استطردت الدجاجة ميليانجريد تقول :

ــ بكل سرور • ولكن يجب أن انبهك قبل كل شىء الا ان حكايتى سوف تكون مختلفة كثيرا عن الصياغة الرسمية لهـا والمنشورة فى الكتب •

سأل فيلوس دهشا :

ــ حكاياتك اذن مذكورة فى الكتب ؟

ــ بكل تأكيد ! بل وفى كثير من الكتب أيضـا • ولكن الرواية التى تتناقلها أسرتى لا تتطابق مع ما هو مدون فى الكتب• وسأروى لك حكايتى كما تتناقلها البنت منا عن أمها • وسأنبهك أثناء سردى لها الى أوجه الاختلاف بينها وبين الصياغة الرسمية• اسمعنى جيدا •

وشرعت الدجاجة النبيلة ذات الريش الداكن المحلى بنقط بيضاء صغيرة تحكى ، فتقول :

ــ ذات يوم فى سالف العصر والأوان • وربما يرجع ذلك

الى خمسة آلاف أو ستة آلاف سـنة ، عاش أحـد ملوك الكلدانيين يدعى اينياس وكانت له زوجة جميلة تدعى آلشيه . وكان لهما ابن وحيد مشرق أسمه ميلياجر يشبه أبولو بشعره الاشقر مثل أشعة الشمس فى الربيع . وتجهل الصياغة الرسمية سرا من أسرار الاسرة يفسر وسامة الفتى الشاب وشبهه بالآلهة . أخجل بعض الشيء من ان أبوح لك به . ولكن ، لا يهم .. طالما تعلق الامر بأحد الآلهة ، بل بأقوى آلهة ذلك العصر أجمعين .. وربما كان ذلك شرفا وليس عارا . ألم تكن النساء ، فيما بعد فى العصور الحديثة ، المدعى بأنها متحضرة ، يتباهين بالخيانات التى يرتكبنها مع الملوك ؟ ان الانجذاب الشديد الى الملك لويس الرابع عشر فى فرنسا من جانب غالبية النسـاء الشـهيرات فى عصره ، هل كان اثما أم عملا مشرفا ؟

قال فيلوس :

ـ لا ادرى . ولكن يخيل الى ان الخطأ الذى ترتكبه الزوجة يظل فى كل الاحوال خطأ ، سواء كان شريكها سلطانا أو رجلا من العـامة .

ابتسمت ميلياجريد :

ـ لا زلت شابا وساذجا ، يا عزيزى فيلوس . وتحيا حياة مـدن الاقاليم الخاملة . ومن الطبيعى ان تحكم على الامـور هكذا . ولكن أغلب الناس تهون من شأن الخطيئة كلما كان

مرتكبها شخصا من علية القوم . فاذا وصلنا الى قمة الهرم الاجتماعى ، فان الفعل الآثم يضحى فى نظر العامة فعلا أريبا ، بل وفى بعض الاحيان أيضا فعلا فاضلا .

قال فيلوس مستنكرا :

ـ وهل هذا ممكن ؟ أى عالم مقلوب الاوضاع هذا الذى تصورينه لى ؟

ـ مقلوب الاوضاع أو غير مقلوب الاوضاع ، يا صغيرى ، هذا حال العالم . ولكن لا تقاطعنى بعد ذلك ، والا فاننا لن ننتهى ابدا ، وستتلقى الزجر من السيد ايكار على تأخيرك . أما الحقيقة ، التى سكتت عنها الصياغة الرسمية ، فهى أن آلثيه فى ليلة حلوة ساحرة خانت اينياس مع الجبار زيوس . وذلك فى غفلة من الجميع . فلم يعرف أحد ان ميلياجر هو ابن زيوس ، ومن ثم شقيق أبولو سوى اله الصواعق وأم الفتى . وعند ولادته جاءت العرافات ، وفقا للعادات المتبعة ، يكشفن له الغيب . تنبأن للمولود بآلاف الاحداث السعيدة ، ولكنهن أعلن أيضا أنه سوف يموت عندما تحترق جمرة النار الموجودة الآن فى الموقد . وعندما سمعت آلثيه هذه النبوءة ، تملكها الرعب ، وسارعت تلتقط الجمرة المتقدة وتطفئها فى الماء . ثم كى تتفادى خطر ان يتصادف الالتقاء بالجمرة فى المدفأة مرة أخرى ، خبأتها فى قاع صندوق كانت تحتفظ فيه بأفخر الاقمشة المطرزة من جهازها .

« مضت السنين ، وكبر ميلياجر . وكانت وسامته وجرأته وذكاؤه وقوته مثار اعجاب الجميع . كان مفخرة ومبعث فرحة للقريبين منه ، ولأبويه وأشقائه ، أو بعبارة أدق لاخوته ، فان آلثيه المبجلة منحت اينياس ذاتها التى سبق أن منحتها لزيوس وانجبت منه أولادا عديدين .

« مضت السنين سعيدة على الدوام . وجاءت اللحظة التى تعقب فيها ساعة الجمال والاعجاب ساعة المجد . واليك ظروف تلك الساعة وتفاصيلها : عندما قرر ياسون أن يجهز السفينة آرجو كى يخرج للظفر بالجزة الذهبية ، دعا ميلياجر أشجع الشبان لمرافقته . وقبل بطبيعة الحال ــ ومن كان بوسعه أن يمنعه ؟ ــ ولمع اسمه فى هذه الحملة . لانه ، بينى وبينك ، وان كان ياسون شجاعا وبحارة السفينة جميعا شجعانا فاننا نعرف فى أسرتنا أن العمل الباهر فى تلك الرحلة تحقق على يد ميلياجر . ولا يهم الباقى كثيرا ! فليس هو الأول أو الأخير الذى يحتجز رئيسه الامجاد لنفسه . ولكن كما قلت لك ، ليس ذلك بذى أهمية ، فقد نال ميلياجر نصيبه من هذه الشهرة الكبيرة . وحتى ان كانت شهرته تشوبها بعض الظلال الا أنها شهرة لم تبق مئات السنين فحسب بل وآلافها أيضا .

« عاد ميلياجر بذلك الى أهله مكللا بالامجاد وتزوج اجمل فتاة فى عصره وتدعى كليوباتره . وقد عرفا معا سعادة لا تشوبها شائبة ، وعاشا مبجلين . الى ان جاء يوم ظهر على أرض اخوتى ــ

أقصد أخوة آلثيه ــ خنزير الكاليدونيين المخيف . ولا جدوى من ان أصف لك الكوارث التى حلت بالبلاد من جرائه ! المحاصيل اتلفت . والقطعان قتلت . والخدم ارتعبوا ولجأوا الى الفرار . دعا اخوتى ميلياجر لطرد الحيوان المتوحش عنهم . هرع الى ارض المعركة ، وقد امتلأ قلبه شجاعة . ولتعلم انه كان الاول على كل الفتيان فى الجرى ، وفى القوس ورمى الرمح ، والأول فى الصيد أيضا . وبطبيعة الحال ، قتل الحيوان الرهيب . ولكن ، من جديد أرادوا ان يسرقوا منه مجده . عندما جزروا الخنزير البرى ، وسألوا من الذى يستحق ان يتلقى الجلد والرأس ، ادعى أخوتى ، ان هذه القطع من نصيبهم ، بحجة أنهم هم الذى دحروا الحيوان .

« ومن جدال الى جدال ، وصلوا الى الاشتباك بالايدى . وباختصار ، وبدون رغبة فى ان استفيض فى الامر ، ذلك ان استعادة هذه الذكرى توقظ آلامى ، استشاط ميلياجر غضبا واضطرابا ، فقتل أعمامه ، يا له من مسكين ! يا الهى ! يا الهى ! .. وعندما تلقت آلثيه نبأ هذه النكبة الكبرى فقدت السيطرة على تصرفاتها وفى ثورتها الشديدة انفلت زمام عقلها ، ففتحت صندوق الجهاز . وانتزعت الاقمشة المطرزة من مكانها ، وأخذت الجمرة المنطفئة والقت بها الى النار . وفى التو احترقت الجمرة التى كانت قد يبست بفعل السنين . ماذا أقول لك أكثر من ذلك؟ وكما قالت العرافات ، ما ان احترقت الجمرة حتى مات ميلياجر .

« خيم اليأس الاسـود على البلاد ، مظلما وثقيلا • وأح الجميع يبكون وينتزعون شعرهم • وانتشر آلاف الرجال يذرفون الدموع على المأساة رباعية الابعاد • فقد نسيت ان أخبرك انه عندما ذاع نبأ موت ميلياجر انتحرت زوجته كما انتحرت أيضا أخواته •

« والى هنا أكاد اكون قد رويت لك ما قررته الصياغة الرسمية للحكاية ، ولكنني اعتقد ان هذه الصياغة لا تتكلم عن آلثيه • وانما تقول فحسب ان أبولو أخذ أخواته وكليوباترا زوجة ميلياجر الى جزيرة ليروس حيث حولهن الى طيور الميلياجريد ولكن هذا ليس صحيحا • اذ لماذا حولهن الى طيور ما دام انهن أقدمن على الانتحار ؟ لا جدوى من البحث عن السبب ، طالما ان هذا خطأ من أساسه • ونحن نجهل مصير هذه التعسات ، ولا نعرف فى الاسرة سوى المصير الذى لقيته آلثيه ، أكثر الشخصيات مأساوية فى حكايتنا • وسأقول لك عنها •

« لم تتبين آلثيه مدى عمق المصيبة التى حلت بها ومبلغ فداحتها الا وهى ترى جسد ميلياجر الذى اسلم الروح مسجى رائعا بلا حراك على الارض أمامها هى أمه التى أتت به الى العالم وربته ، هى التى لم يكن تعنيها متعة سوى الاعجاب به ، هى تسببت فى موته • ومنذ تلك اللحظة ، لن يكون لعينيها هدف سوى البكاء عليه • أى أم غيرها لقيت مثل هذا المصير التعس ؟ ملتاثة العقل من تباريح الألم ، مضت تضرب فى دروب

الجبال نائحة . فتدوى فى ارجاء الوديان أصداء نحيبها . وحيثما مرت بسطت العصافير اجنحتها وفرت خائفة . وامتلأت الجداول بدموعها . ودوت مساقط المياه هادرة بعد طول جفافها . تعالى صراخ آلثيه عبر الطرقات ملتاثة تقول « يا لى من مسكينة ! شقية ! ماذا فعلت ! ملعونة أنا ، واحسرتاه ! ملعونة ! ملعونة هى الام التى قتلت أبنها ! »

« بعد ان سارت أياما وليالى ، وما عادت ركبتاها قادرتين على حملها ، خرت على صخرة وعرة ناتئة . انكفأت على الارض . حتى تكف عن رؤية السماء وتختفى عن العيان ، لتذرف دموعها التى لا تنضب . ازهرت أحضان الصخر بدموعها ، وارتجت الطبيعة كلها بزفراتها .

« كلمة واحدة راح الجبل المغطى بالشجر يرددها مثل رجع الصدى . « اللعنة ! اللعنة ! اللعنة ! » هذه الكلمة ترددت بلا انقطاع فى ارجاء الجبل . وفجأة ظهرت فى السماء سحابة تتلألأ بياضا ، واقتربت من الصخرة فلمعت حوافها . وفد ضوء السحابة الى جفنى الأم الكليمة المحمرتين من فرط البكاء ، ففتحت عينيها دهشة ، ورأت زيوس الجبار جالسا على السحابة .

صرخت فيه قائلة :

ــ ابتعد عنى ! ابتعد عنى ! لقد قتلت ابنك المقدام . أنا قاتلة : أم مجرمة . اللعنة على ! اللعنة ! اللعنة ! »

« حاول زيوس ان يهدىء من روعها • تحدث اليها برقة ، وقال لها أكثر الكلمات ادخالا للعزاء على القلوب ، ولكن بلا جدوى •

« كان جسد آلثيه مرتجا من شدة النحيب • ومن عينيها تدفقت ينابيع الدموع • ومن شفتيها المرتعشتين أمطرت على نفسها اللعنات • فهم زيوس ان ما من عزاء يمكن ان يدخل قلبها • ما من شيء يمكن ان يواسى أما قتلت ابنها — وأى ابن كان ذلك الابن ، كان يستأهل قصائد المديح • ومن ثم أعلنها فى لهجة حانية ولكنها آمرة ، بما انتواه فى شأنها ، قال لها :

— آلثيه ، أيتها الحبيبة ، ينفطر قلبى ان أراك فى هذا الحال • ولهذا فقد قررت أن أحيلك الى طائر فخم كبير • وانى آمر أيضا ان يخلد حزنك ونواحك • ومنذ الآن ، سأسميك ميلياجريد تذكارا لابننا ، سوف يكون ريشك رماديا بلون ثياب الحداد التى لا تبلى • وتذكارا لنحيبك سيحمل ريشك نقاطا بيضاء فى حجم دموعك • وسيذكر صوتك بالنشيج • أما هذا المكان •

فكر رب الأوليمب هنيهة ، ثم أضاف :

فسأطلق عليه أسم اللعنة • سوف يصبح ممرا جبليا عالى الجنبين يفصل حدائق الاوليمب وثيساليا عن الاقاليم الاكثر بعدا • واليك ما آمر به : سوف تكون احجار هذا المكان داكنة اللون ،

بما يناسب حالة الحداد ، مع ومضة توحي بضياء عينيك . وأرضه ستنقطع الى طبقات متعـددة الالوان كى تكون شـاهدا على اختلاجات التربه تحت وطأة نشيجك . واخيرا ، فان مياه الامطار التى تسقط على هذا الممر ، رامزة الى دموعك التى لا تنضب ، سوف تتفرع الى خمسة أنهار تجرى فى شتى الاتجاهات حتى ينبسط ألمك على الخليقة كلها ، على الجبـال ، والسـهول ، والبحار ... »

ثم اختتم قوله بصـوت أكثر مهـابة « يا حبيبتى آلثيه الرقيقة ما عاد لأم ميلياجريد وجود . ان زيوس يوجه اليها تحيته الاخيرة . والآن ، يا ميلياجريد الجميلة يمكنك ان تطيرى . ان حقول البشر وحدائقهم فى انتظارك . ولكن قبل ان ترحلى احتمى داخل شقوق شجرة لأننى سـأنزل مطرا غزيرا كى نرى نحن الاثنان فى لقائنا الاخير هذا كيف تتفرق المياه وكيف تنقل ألمك الى أقصى أرجاء المعمورة ، والى أبد الآبدين »

وفى التو واللحظة انهمرت الامطار . واختفى زيوس . حملته السحابة اللألأة نحو الاوليمب . ونزلت ميلياجريد نحو السهل . وقد أمكن لاوامر زيوس بشـأن الاحتفاء بذكرى حدادها ان تخفف من آلامها . وظل هذا الحداد آلاف السـنين مرعيا . مضت الانهار الخمسة التى ذكرتها فى جريانها ، وفقا لاوامـر زيوس . ذلك انه ولئن كان لم يعد لهذا الاله الجبار وجود ،

فان ما أمر به باق الى الابد فهكذا يموت الكبار تاركين أعمالهم تخلدهم من بعدهم • وقد جرت هذه الاحداث يا عزيزى فيلوس منذ أمد بعيد ، بعيد جدا ، ولكنها توضح لك من أى سـلالة عريقة انحدر ، وهنا تنتهى حكايتى » •

دهش فيلوس لهذه الحكاية أشد الدهشة ، واستغرق فى التفكير • اراد ان يسأل صاحبة الحكاية عن ممر جبل اللعنة ، وعن أرضه متعددة الالوان ، وعن الانهار الخمسة التى لم تكف عن الجريان منذ تلك الحقبة القديمة • لكنه لم يجرؤ على ان يفتح منقاره • لم يكن الظرف يشجع على طرح الاسئلة ، ولا نظرة ميلياجريد فقد شرد بالها بعيدا ، الى ما وراء صخور دريسكوس ، كما لو كانت ترى على قمة خافية عن العيان جدتها الاسطورية القديمة ، ودموعها التى تدفقت منها الانهار الخمسة • لم يكن من المناسب ان ينبس فيلوس بكلمة اذن •

وبدلا من ان يفتح فيلوس جناحيه ويطير ، انسـحب فى صمت بخطوات قصار ، واندس عبر اخشاب السور القديمة ، ذلك السور الذى كان بامكانه ان يجتازه كلما شـاء ، ولكنه كان أيضـا يعين اطار نفوذه ، والحد الفاصل بينه وبين عالم ميلياجريد الساحر •

٩

فيلوس يزور رومانيا

مضت سنوات عديدة منذ تلك الايام التى حصل فيها فيلوس على لقب البطــل • وعلى الرغــم من ان حياة الحمام لا تطول كثيرا ، فان فيلوس استمر على قيد الحياة ، بل ومستمتعا بصحة ممتازة • واظب بطبيعة الحال على الحياة مع بقية السرب ، ولكنه اعفى من الالتزامات التى كانت عليه فيما مضى • ومن ثم كان يحيا متمتعا بقدر أكبر من الحرية • كان يخرج للنزهة ، بــل ويسافر فى رحلات ، ويتجاذب اطراف الحديث كثيرا مع سيده الحبيب •

وذات يوم قال له :

ــ يا سيد ، ألا تشــعر بالخجل ؟ علمت ان ثمة مسرحية كتبها نائب يانينا ، أحد ابنائنا ، وقدمت على مســارح بلد كبير مجاور ، ولم تقل لنا عن ذلك شيئا •

ــ أنت على حق يا عزيزى فيلوس • كان يجب ان أحدثك انت بالاقل عنها ، انت الذى تهتم بالادب •

ــ بكل تأكيد ! ان يانينا المدينة صاحبة السبق فى مجالات السلاح والآداب والثروة راحت تقدم نفسها بعمل ادبى فى بوخارست • مدينة النور هذه ، حيث برز كثير من اليونانيين قديما ؛ ومع ذلك لا تهمس الى عن الامر بأدنى همسة • انك تخطىء بذلك فى حقى •

ــ اعترف الك بذلك ، يا عزيزى فيلوس • وأستميحك عذرا •

ــ لن اصفح عنك الا على شرط ، وهو ان تأذن لى برحلة قصيرة الى رومانيا •

أثار السيد ايكار بعض الاعتراضات • قال له ان هذه البلاد بلاد قصية ، تفصلهما عنها جبال ووديان ، بل أنها تقع بعد نهر الدانوب ذاته ، لكن فيلوس أصم أذنيه عن هذا الكلام • ورد على سيده قائلا :

ــ مهلك • اثناء أحلك سنوات الاحتلال التركى ، كان واحد من مواطنينا ، هو روفاس الكبير ، يتردد على تلك البلاد • مع قافلته الصغيرة • بانتظام • وأنا الذى أجوب بلا صعوبات كل دروب السماء ، انا الذى زرت العديد من الاماكن ، بل

وذهبت الى كوكب آخر ، سأعجز عن الذهاب الى بوخارست ! اذن ، فأنت قليل الثقة فى ذكائى ومضاء جناحى ؟

وبعد مناقشة قصيرة ، فكر السيد ايكار فى الامر . ثم منح حمامته المفضلة الاذن الذى طلبته . وهكذا انطلق فيلوس اليوم التالى فى طريقه بعد أن راجع بعناية خريطة البلقان .

اختار الاوليمب محطة اولى ليرتاح فيها قليلا . وسوف يجدد الافطار الذى سيتناوله هناك قـواه على الطيران ، كما ستجدد صور اليونان القديمة من قواه المعنوية أيضا . ولذلك طار مجتازا البحيرة وعبر الصخور والغابات والمراعى ثم بطاح ثيساليا الشاسعة ووصل الى قمم الأوليمب وما ان وطئت ساقاه هذه الارض المقدسة حتى تملكته الدهشة . من بعيد ، عند ناحية الغروب أقبلت حمامة تطير على ارتفاع شاهق وفى خط مستقيم . ان الحمام لا يطير ابدا ساعات طوال فى خط مستقيم هكـذا . وبمتابعة النحو الذى يضرب به هذا الطائر الهواء بجناحيه ، وذلك فى ايقاع يتزايد بطأ وتخاذلا كل وهلة ، كما لو كانت مواصلته للطيران تحتاج الى جهد تتناقص قدرته عليه ، عرف فيلوس ان الطائر حمامة هدها السـفر . كان الطائر المسـكين يلهث . ومما يثير الأسى حقا انه لازال بحاجة الى مجهود اضافى كى يتوصل الى اكتشاف الموضع المناسب ليحط عليه ويستجمع انفاسه المتلاحقة . كان مرهقـا للغاية ، حتى انه عندما حط فى النهاية على منبسط اخضر لم يستطع ان يمسك نفسه ويقف على

ساقيه . فخر متكئا بجسده كله على أنجيل الاخضر الهزيل . مبسوط الجناحين ، ممدد الرقبة ، وقد التصق رأسه بالارض .

اقترب منه فيلوس ، ومن أول نظرة لاحظ جمال جسده المديد النحيل وشبهه بالحمام المنطلق كالسهم . كما لاحظ أيضا ان الطائر يلبس حول عنقه سلسلة رفيعة من المعدن ربطت بها ورقة صغيرة مطوية . وتساءل فيلوس ماذا يمكن ان تكون هذه اللفافة . وفى هذه الاثناء ظل الطائر المسافر ساكنا منهارا على الارض لا يبدى حركة على الاطلاق . فتح عينيه بصعوبة ، فبدتا معتمتين ، وراح جسده الصغير يعلو ويهبط بفعل انفاسه اللاهثة .

قال فيلوس لنفسه « ليس الوقت مناسبا لأى استفسار أو حديث . لابد من تقديم المعونة اليه اولا ، اذ يبدو أنه سيهلك جوعا وعطشا أو سيقتله التعب » .

أسرع يجمع حفنة من الفراولة البرية غمسها فى خيوط من الماء منبثقة من الصخر . ثم جاء ووضعها الى جوار الطائر المجهول ، وراح يدس حبات الفراولة واحدة واحدة فى منقاره . مضى فيلوس بعد ذلك أيضا وجمع له بعض الحبوب . ولكن كان يجب ان يروى هذا المسكين ظمأه قبل ان يضع أى طعام فى معدته .

ازدرد الطائر اولى حبات الفراولة بصعوبة ، ثم التهم بنهم

بقية الفاكهة والحبوب • وبعد ذلك شد أزره ونهض • لم يكن وسيما فحسب ، بل كان يتفجر حيوية ايضا •

قال لفيلوس :

ـــ أشكرك جزيل الشكر ، يا أخى • اعترف عميق الاعتراف بحسن صنيعك • لقد انقذت حياتى •

ومد جناحه الايمن يصافح فيلوس ، ثم قل :

ـــ اسمح لى أن أقدم نفسى • أنا جون ، أمير ماركيت الخامس •

سرت فى أوصال فيلوس رعشة • ها هى ارستقراطية الحمام مجسمة أمامه ! الاستقراطية الحقيقة ، لا ارستقراطية الفكر التى التقى بها فى كورفو • الاستقراطية الأخرى ، تلك التى تخيلها موجودة اذن • ان العصفور الماثل أمامه يبدو من سلالة نبيلة ، ويحمل لقب أمير ! استغرقته أفكاره ، فلم يجب • استطرد الامير يقول بأدب :

ـــ معذرة ، كنا نهز جناحينا بالتحية ، فلم أسمعك تذكر اسمك •

نمتم فيلوس بتواضع :

ـ معذرة • أما اسمك أنت فقد أعجبنى جدا ، فنسيت أن أقدم نفسى • اسمى فيلوس •

استفسر الآخر :

— فيلوس ؟ كيف يكون ذلك اسمك ؟

سأل فيلوس حائرا :

— كيف هذا ؟ تقول كيف ؟

بهدوء غير الآخر لهجته . استمر محتفظا بلبناقته وان أضحى أكثر تقبلا للأمر . قال :

— لا شيء ، لا شيء .

جال ببصره فى المشهد الجميل القاسى من حوله . وأردف يقول :

— لا شك انك من أهل هذا البلد المقفر ؟

بهم فيلوس ان جون توقع أن يكون هو بدوره من ذوى الألقاب . هم أن يغضب ، لا لأن الامير أفصح له بأدب عن دهشته لذلك ، بل لانه انما استخلص ذلك من النظرة التى القاها على ما حوله . ولكنه تمالك نفسه عندما فكر ان جون يجهل أى أرض مقدسة يطأنها فى هذه اللحظة ، وتمالك نفسه أيضا لأنه أخذ رغما عنه بحقيقة أن هذا الطائر الوسيم المهذب أمير من الأمراء .

وآجاب فيلوس :

— أجل . أنتمى الى هذه الأرض القديمة الغنية بالأمجاد والبطولات . لقد ربتنى هذه الأرض وأطعمتنى .

استطرد الآخر ضاحكا :

ـــ انه لأمر غريب . يبدو لى أننا متشابهان الى حد بعيد. وأعتقد أننا ربما انحدرنا عن أصل واحد قديم أجهله ، على الرغم من معرفتى التامة بسلالتنا .

ما عاد ثمة مبرر كى يغضب فيلوس . فقد قال له الأمير انهما متشابهان ، متشابهان الى حد بعيد . ويا له من أمير نبيل وسيم ! كبح فيلوس جماحه حتى لا يجرفه الخيلاء .

قال :

ـــ أوه ! ليس من الممكن أن نكون انحدرنا عن أصل واحد ان أسرتى لم تخرج منقارها من يانينا الشهيرة أبدا ، بينما يبدو انك قد أتيت من بلد بعيد . ثم أنت أمير . وبهذه المناسبة ، أود أن أعرف لو سمحت لى كيف أصبحت أميرا ، أمير .. لم ألتقط الاسم الذى ذكرته بعد هذا اللقب .

ضحك الآخر من قلبه ، وقال :

ـ أمير ماركيت . انتظر ، سأشرح لك كيف صرت أميرا . أتعرف انك تروق لى جدا ، أولا بسبب ما بيننا من شبه ، وثانيا لأنك أنقذت حياتى ؟

أجاب فيلوس ، وقد اكتسى مسحة من التواضع :

ـ أوه ، انك تبالغ ، يا صاحب السمو !

قال الامير ، وقد بدا عليه الرضا لمخاطبته بصاحب السمو :

ـ ومن أين أبالغ ؟ احسست بانني كنت فى حالة من الانهاك، ما كان بامكانى ان اخلص منها قط ، لو لم تؤثرنى بجميلك وتعنى بأمرى . لم اكن أعرف ان الطريق طويل الى هذا الحد . انك انقذتنى حقا . وسأظل ادين لك بالعرفان الى الأبد .

ـ انك ذو قلب طيب جدا ، يا صاحب السمو ، ولكن لاتضبع وقتك فى اسداء الشكر . كنت ستحكى لى كيف أصبحت أميرا . واشرح لى أيضا ، اذا سمحت ، ما هذه القلادة الغريبة التى تطوق بها رقبتك ، فهذه أول مرة أرى حمامة تتحلى بمثل هذه .

ـ ذلك لأننى حمامة زاجلة .

تقافز فيلوس على ساقيه الصغيرين النشطين ، فقد انفعل ايما انفعال لهذا الخبر الذى يفوق التصديق . ان جون اذن أمير تلك الحمائم التى سمع الاحاديث عنها دون ان يلتقى بواحدة منها قط، حتى ظن انها مخلوقات من صنع الخيال فحسب .

ولم يتمالك من ان يصيح قائلا :

ـ اذن ، فلهذا الحمام وجود !

ـ كيف ليس لهذا الحمام وجود . انه فعلا موجود !

سأل فيلوس بفضول شديد :

ـ وما وظيفة هذا الحمام ؟

ارتسمت فى عينى الامير نظرة حالمة ، كمـا لو كان يستعيد امجادا غابرة • وقال :

ـ قديما ، عندما لم يكن للتليفون ولا للتلغراف وجود • كان الحمام الزاجل ، هذا الحمام الرحالة ، يحل مشـاكل ذات طابع حكومى • كان يلعب دورا اساسيا فى تلك المعارك التى تقرر غالبا مصائر الشعوب ، ويمـارس نفوذا على السياسة الداخلية للدول •

توقف لحظة ، ثم استطرد يقول بحماسة :

ـ بالطبع ، فقد الدور الذى يلعبه هذا الحمام أهميته ، ولكنه لا زال على أى حال دورا جديرا بالاعتبار • اذ يحدث ان بعضـا من ذوى النفوذ فى هذا العالم يعهدون اليه بمـا لا يمكنهم ان يستأمنوا فيه اسلاك التليفون ولا حتى البشر أنفسهم • ويبلغ بهم الجد احيانا ان يفوضوا اليه أمور حبهم •

قال فيلوس متقافزا :

ـ أمور حبهم ! أمور حبهم ! كم هو رومانتيكى هذا ، ولكن كيف يحدث ذلك ؟

ـ على أكثر من نحو • سأعطى لك مثلا ، أخبرت به منذ وقت قريب • وقع تاجر غنى من مارسيليا فى حب امرأة جميلة ، متزوجة من رجل غيور كثير الشكوك • فكان يحدد لها مواعيد اللقاء بواسطة صديقى الكونت دى كاليه ، الذى كان يرسله الى

نافذتها ، ومن ذا الذى يشك ان الطائر الذى تلاطفه المرأة الشابة بأناملها البريئة جاء يخبرها بالساعة التى سيلتقيان فيها وبمكان هذا اللقاء ؟ أليس فى ذلك شهامة ؟

قال فيلوس متسائلا :

ـــ انه كونت • وهو صديقك • هذا • ما اسمه ، قلت ؟ كاليه ؟

أجاب جون فخورا :

ـــ انه كونت ، وهو صديقى ، حقا ! وماذا يضايقك فى هذا الامر ؟ ولماذا دهشتك هذه ؟

ـــ لأن هذه المهمة التى قبل صديقك أن يؤديها ، يا جون، تنظر اليها فى يانينا نظرة مختلفة ، ولا نرى فيها أية شهامة •

بعد أن بدت الدهشـــة على الامير لمناداته « بجون » دون حرج ، ابتسم ابتسامة متسامحة وعاد يتأمل الأفق بنظرات حالمة •

باللمظهر الوسيم • وباللوقفة المتعنزة ! أنبهر فيلوس اعجابا به من جديد • غلبه الشغف أن يعرف منبته ومحتده ، فذكره بوعده :

ـــ كنت ستحكى لى كيف اصبحت اميرا •

عابت انظار جون بعيدا فى المكان والزمن • وشرع يقول :

ــ كان ذلك فى العصر الذى تألق فيه بسماء اوروبا نجم نابليون الاكبر . كان قد سحق أشد الجيوش بأسا ، واسقط من على عروشهم الملوك والاباطرة الذين لم يحنوا الجباه أمامه ، وأحل محلهم اخوته وأصدقاءه . ولكن بعد سنوات من الانتصار جاء اليوم الذى كان عليه ان يخوض أحرج معارك حكمه ، بل معارك العصر كله . ألا وهى معركة واترلو . ان آل روتشيلد ..

قاطعه فيلوس قائلا :

ــ عن نابليون الاكبر ، عن فرنسا والمانيا ، وعن بلاد أخرى أيضا سمعتهم يتكلمون . ولكن عن آل روتشيلد لم أسمع قط . أين كانت اذن مملكتهم ؟

ــ انها مملكة الثراء ، يا صغيرى ، وهى تمتد بطول الارض وعرضها . كان أحد الاخوة وهو جيمس يعيش فى باريس ، والثانى ناثان يعيش فى لندن ، أما سائر الاخوة روتشيلد فكانوا يعيشون فى عواصم أخرى . فى تلك الايام لم يكونوا بعد من الثراء بحيث يزلزلون اوروبا زلزالا . ولما نشبت أكبر معارك العصر فى واترلو ، راح الجميع ينتظرون كى يروا لمن ستكون الغلبة . لان الانباء فى ذلك الوقت كان يتأخر تداولها . كان يحملها ناقلو البريد الذين يركبون العربات أو المراكب . أما الاخوة روتشيلد ، وكانوا رجالا اذكياء ومنظمين ، فقد كان لديهم مراسلون فى كل الانحاء ، ولكن كان لديهم أيضا حمامهم

الزاجل . وهناك فارق كبير بين ناقلى البريد وبيننا . اسمع الآن ماذا جرى . غداة المعركة ساد الاعتقاد فى لندن ان الحلفاء خسروا الحرب ، وذلك لأن احد المراسلين اذاع نبأ يقول بان نابليون تمكن فى موقع يدعى الاذرع الاربعة لواترلو وبالفرنسية « لى كاتر برادى واترلو » ان يسحق جيوش اعدائه . ولكن فى اليوم ذاته ، بفضل احد مراسليه الخصوصيين وبفضل واحدة من الحمام الزاجل ، وكانت هذه الحمامة جدى ، علم ناثان روتشيلد الحقيقة : كان بونابارت هو الذى هزم فى واترلو .

سأل فيلوس دهشا :

ـ ومن بونابارت هذا أيضا ؟ ألم نكن نتحدث عن نابليون الأكبر ؟

ـ هكذا كانوا يدعونه ايام انتصاراته . ولكن ما ان لحقت به الهزيمة حتى اضحى ينادى باسم أسرته ، بونابارت ، كان ناثان اذن الوحيد الذى يعرف السر الخطير . وفى الفجر توجه الى البورصة ، وكان يطلق عليها ستوك اكستشينج ، وان الف الناس ان يسموها ماركت أى السوق . وهناك اعتبروه أول الأمر مجنونا ، وقد رأوه يبيع كل ما لديه من أوراق مالية فرنسية . راح يبيع ويبيع جهارا ودون تراجع . وجهارا أيضا راح يشترى أوراقا مالية انجليزية . وازاء تصفية من هذا القبيل، ساد الهلع رجال البورصة رويدا رويدا وفى المساء ما عادت الاوراق المالية الفرنسية تساوى فلسا واحد بطبيعة

الحال ، لم يكن هذا الانهيار مبررا ، لأنه ولئن كان بونابرت قد هزم الا ان فرنسا ظلت على قيد الوجود وكانت ستسدد لاصحاب اوراقها المالية حقوقهم • وبالليل ، قبل ان تغلق البورصة ابوابها اشترى ناثان ــ أو بعبارة أصح ناثان العظيم ــ لقاء كسرة خبز صناديق بأكملها من الاوراق المالية الفرنسية • هل فهمت يا صديقى ؟

وببلادة أجاب فيلوس بالنفى ، فلم يكن يعرف من شئون المال فى الواقع سوى نظام المقايضة المتواضع النزيه المتبع فى متجر السيد ايكار بيانينا •

قال الأمير بغير اكتراث :

ــ لا يهم ذلك كثيرا •

ودون ان يفقد شيئا من كبريائه استطرد يقول :

ــ كانت النتيجة ان كسب الاخوة روتشيلد فى يوم واحد عدة ملايين من الجنيهات الذهبية • فاقتنوا قصورا فى كل بلد من بلاد أوروبا ، ملأوها بأفخر الاثاث وأغلى الجواهر • وبلوحات لكبار الفنانين من أمثال رافيل والجريكو ورمبرانت • وبقى لهم بعد ذلك من المال الكثير • أما فى لندن فقد جرى احتفال خاص صدحت فيه الموسيقى وشربت الانخاب • وأهدى ناثان العظيم فى هذا الحفل الى جدى الذى كان يدعى بدوره جون لقب أمير الماركيت أو أمير السوق • وهو اللقب الذى توارثناه من بعده • هل فهمت هذه المرة ، يا صديقى ؟

حك فيلوس رأسه ، وقال :

ــ فهمت . لكن قل لى يا جونى ..

قاطعه الامير بلهجة باردة :

ــ يا صاحب السمو ، من فضلك . ألم تنادنى بذلك منذ هنيهة ؟

أجاب فيلوس بجفاء :

ــ بونابرت ، بدوره ، كانوا ينادونه أول الامر نابليون الاكبر . وسوف نرى ما الاسم الذى يجدر ان اناديك به فيما بعد . أما الآن ، فاشرح لى يا جونى شيئا آخر . كل هذه القصور ، وهذه المجوهرات ، وهذا المال ، كسبه الاخوة روتشيلد فى يوم واحد ؟ كى يكسب ناثان كل هذه المبالغ ، لابد ان ثمة من خسرها أيضا . ماذا فعل ذلك الذى خسر ؟

انخرط جون فى الضحك :

ــ وهل كان ثمة خاسر واحد ؟ هل تعتقد ذلك ؟ كان هناك آلاف من الخاسرين . كل السذج الذين كانوا يجهلون النبأ العظيم . وكثيرون منهم أفلسوا افلاسا تاما ، ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك .

صاح فيلوس وهو يضرب بمخالبه الصغيرة أرض الاوليمب الفقيرة المقدسة .

ـــ هذه لصوصية •

قال الامير بلهجة احتفالية :

ـــ اللصوصية هى ما يحظره القانون • أما هذه العمليات فمشروعة •

صاح فيلوس وقد ازداد انفعالا :

ـــ انها لصوصية ، أقول لك ! لصوصية بحت • ولا يعنينى كثيرا ما ينص عليه القانون •

جحظت عينا الأمير ، وقال قلقا :

ـــ آه ! ألا تحترم القانون ؟

ارتبك فيلوس • احترام القانون ؟ ماذا يعنى ذلك ؟ لم يكن يفهم • هل يمكن أن تكون السرقة مسموحا بها ؟ الى الجحيم لهذه الحكايات • الى أين يجرجره هذا السيد الارستقراطى ؟ على أى حال ، لم يكن الامر جليا ! ومن الأفضل أن يغير موضوع الحديث •

عاد فيلوس يقول :

ـــ يا صاحب السمو ، لدى سؤال آخر • انت بهذه الوريقة التى تحملها مربوطة فى عنقك تذهب لأداء مهمة مثل تلك التى أداها جدك الاسبق ؟

بان الرضا على جون • أعتقد انه ارتفع الى مستوى لقبه ومقامه ، وهو ما كان يعنى الكثير بالنسبة له • جال ببصره فيما حوله بنظرة مرتابة ، مومئا الى فيلوس أن يخفض صوته :

همس قائلا :

ــ كلا ، لم أعد أعمل لحساب آل روتشيلد • انى أتبع الآن عصابة سرية يحتم عليها نشاطها ألا تعهد بمراسلاتها للمواصلات السلكية أو اللاسلكية أما البريد فلا تعتمد عليه الا لماما •

ــ وما هذا النشاط ؟

ــ فى الحقيقة ، لا أعرف هذا النشاط على وجه التحديد • ولكن لما كنت قادما من مرسيليا ، التى هى مركز تجارة الهيروين، وذاهبا الى بلد فى الشرق الأوسط قريب من تركيا حيث تزرع المادة الأولية ، وهى الخشخاش ، فانى أظن أننى أنقل رسائل سوف تسمح بتهريب صفقة ضخمة من المخدرات •

ذهل فيلوس ! ومن شدة اليأس لطم رأسه بطرفى جناحيه :

أالى هذا الدرك ينحدر جون بالغ الوسامة ! بالغ الوسامة حقا ! والذى تبدو عليه مسحة من النبل المصفى ! اذن ، فقد بلغت ارستقراطية الحمام أسوأ درجات الانحطاط • كان هذا خيبة أمل جديدة •

سأله جون قلقا :

ـــ ماذا هناك ؟ هل انت منافس لى ؟ هل تقوم بذات العمل؟

هب فيلوس فى وجهه صائحا :

ـــ أوه ! كلا ، وألف كلا !

ـــ اذن ، أين تذهب أنت ؟

ـــ الى بلد ليس به بورصة للأوراق المالية ، ولا تصنع فيها الثروات الخرافية فى يوم أو نصف . انى ذاهب الى رومانيا .

انتشرت أمارات الرعب على وجه جون الذى أجفل خطوة الى الوراء متراجعا . وسأل مذعورا :

ـــ هل ستصبح منهم ؟

ـــ لست كذلك . ولكننا أنا والسيد ايكار نعتقد ان المرء اذا كان صالحا ومخلصا للنظام الذى يحيا فى ظله ، يظل صالحا .

رفع فيلوس صوته . ومضى يقول :

ـــ وبالمثل ، اذا كان المرء فاسدا يظل كذلك اينما وجد وأيا كان الموقع الذى يحتله أو اللقب الذى يحمله . ولما كنت قد علمت أن أهل رومانيا أناس طيبون ويتحلون بالشجاعة ، فانى ذاهب للتعرف بهم .

ظل جون حائرا . ثم سأل :

ـــ ولماذا تريد أن تعرفهم ؟ ماذا يدور من أفكار فى عقلك ؟ لماذا أخذت على عاتقك رحلة طويلة مثل هذه ؟

— من قبيل الفضول وحب الاستطلاع • وأيضا بروح رياضيه •

— انى لا أفهمك • كلا ، حقا لا أفهمك •

— وكيف يمكنك أن تفهمنى من أعماق الحضيض الذى أنت فيه أيها الشيطان المسكين . جــون ؟ ان حب الاستطلاع والروح الرياضية من الأشياء التى لا تشترى • ليس ثمة ما يشترى الا بضائعك أنت • ولكن قل لى كيف وانت بالحالة التى أراك عليها . سوف تستطيع أن تحتمل رحلة بمثل هذا الطول ؟

أجاب جون وقد بدا عليه الارتياح لتغيير مجرى الحديث :

— أوه ! لن أقوم بهذه الرحلة على دفعة واحدة • سأتوقف فى أثينا حيث سأذهب لمشاهدة البارثينون • كنت أتوق منذ قديم الى ذلك ، لأننى أعتقد أن من المناسب لمن كان يحمل لقبا مثل لقبى أن يدلق بعضا من برازه على عجيبة العصور السالفة هذه•

هذه المرة ، لم يتمالك فيلوس نفسه • ان طبقة الأمراء هذه على غاية من السوقية ! يبدو أن هؤلاء الارستقراطيين الأدعياء يظنون لأنهم يملكون لقبا ، ان بامكانهم أن يستبيحوا لأنفسهم عمل كل شىء ، حتى أكثر الافعال دناءة •

انقض على جون أمير السوق ، يصفعه بجناحيه بأقصى قوة ، ويصرخ فيه :

ـــ أيها الأفاق الخسيس • أيها الامير الشقى ! ماذا ينتظر من أمثالك سوى تدنيس الأمجاد الخالدة • اذهب • اجر • انت حر • ولكن هناك جرما آخر لن أدعك تقترفه • ألا وهو ان تسمم البشر بموادك المخدرة •

قال هذه الكلمات ، وأمسك بمخالبه الحادة الوريقة المطوية بعناية والمدلاة من عنق جون ، وبغضب مزقها اربا اربا • ثم انطلق الى السماء ، بعد أن أحس بالخلاص •

ملقى على الأرض ، وقد تهرأ ريشه ، راح جون يتابع بعين يائسة مزق الورق تتقاذفها الريح ومع هذه المزق طار أيضا لقبه، ذلك ان هذا اللقب يتوقف على المال كسبا أو خسارة •

أما فيلوس فمضى يطير فى الهواء ، خفيفا ، فرحـــا ، غنيـــا بشهامته ـــ وهى ثروة لا تفقد ، وغنيا أيضا باشتياقه لاستكشاف بلد جميل ، هو رومانيا •

* * *

طار ساعات وساعات • وفجـــأة تبين ان رومانيا ماثلة أمام ناظريه • تحت جناحيه المنبسطين ، كان يجرى شريط عريض من فضة تميل الى اللون الأخضر فى بعض المواضع ، وتميل الى اللون الأزرق فى مواضع أخرى • كان يعلم أن حدود هذا البلد نهر عظيم ، هو الدانوب • ولابد انه هو ذلك الشريط الفضى ، دون أدنى شك • ولا يسمح الوقت الآن أن يصـــاب جناحاه بنوبة

تشنج . فالنهر من تحته جد عريض . ولو سقط فسوف يغرق في مياهه لا محالة .

قال لنفسه « نحن في اليونان نتصور أن انهارنا كبيرة . بينما هي مجرد غدران صغيرة اذا ما قيست بالدانوب . وحتى بحيرة يانينا الى جانب هذا النهر تبدو هزيلة . »

ولكن ما هذا السهل في الأغوار ، هناك ؟ مترامى الاطراف ، بلا حدود ، هكذا بدا . على أي ارتفاع يطير ، وفي أي اتجاه يصوب عينيه ، الى الشرق أو الغرب ، لم تكن ثمة بادية لجبل أو صخر عال . كان السهل ممتدا من كل جانب ، سهل مزروع ، خصيب ، مخضوضر . فكر فيلوس قائلا لنفسه من جديد « ونحن في يانينا نسمى تلك الحواشي الخضراء الضئيلة حول المدينة سهلا ! فاذا قورنت بهذه المساحة الشاسعة الأبعاد فسوف تبدو مجرد منديل للجيب ! يا الهي ! هل خدعنا في منطقتنا الحبيبة باعتقادنا أنها أجمل بقاع الدنيا ؟ أليست في الحقيقة واحدة من أصغر البقاع وأفقرها ؟ »

أحس فيلوس بقلبه ثقيلا . ولكن أكان ذلك حزنا أم كان تعبا فحسب ؟ لم يكن بامكانه أن يعرف . وعلى كل حال فقد أحس فجأة باعياء شديد يجتاحه .

من تحته قرية ، قرية متواضعة على ما يبدو ، ذات منازل صغيرة واطئة ، ولكن من بينها بيتا أبيض محاطا بالشجر . على

شجرة منها سوف يحط ليستريح من وعثاء السفر • نزل بانقضاضة فجائية • وبعد بضع ثوان كان يجثم على شجرة ذات أغصان خفيضة • ولكن ما ان استقر على الشجرة التى اختارها حتى آدرك خطأه • فالى جانبها وقف شاب ما ان رآه حتى أمسك به وقربه من صدره ••

قال فيلوس لنفسه « يا لى من مسكين ! كم كان ذلك العزيز السيد ايكار على حق ، بل وحتى ذلك التعس جون أيضا! ماذا كانت حاجتى ان آخذ على عاتقى رحلة مثل هذه ! لقد حذرونى جيدا أنها بلاد خطرة ! ياللشقاء ! قبل أن يهبط الليل، سأجد نفسى أطبخ فى قدر رومانى منتوف الريش مذبوحا • »

أغمض فيلوس عينيه كى لا يرى ما سيحدث له ، بل ومد رقبته كى يستطيع الغريب الذى أسره أن يضغط عليها بيسر أكبر • على أنه لم يشعر بأى ضغط ، بل على العكس أحس بيد تربت على ريشه ، وتلاطفه • وجلا ، فتح احدى عينيه ورأى الرجل المجهول يقربه من خده مبتسما وقد بدا عليه الاعجاب • وسرعان ما أخذ الرجل يكلمه ، مظهرا دهشته لعدم تلقيه اجابة • ولكن فيلوس بايماءة من رأسه ومن جفنيه اللذين رفعهما أكثر من مرة أفهمه أنه لا يفهم اللغة التى يتحدث بها •

ممسكا فيلوس فى يده ، ومبتسما على الدوام ، توجه الغريب الى الجهة الخلفية من البيت • وهناك ، ياللسعادة ! من أحد الأبراج الصغيرة خرج ما يقرب من عشر حمامات أحاطت

به ترفرف أجنحتها فرحة . تحدث اليها الشـاب بلغة أجنبية ، ترجمتها له الحمامات بلغة الحمام .

ـــ يقول انه أحس وهو يجس حويصلتك ان معدتك خاوية. ولهذا فقبل أن نثرثر بالكلام ، يريد أن يقدم اليك بعض الطعام، ما دمت قد حططت عنده .

نثر الشاب على الأرض ذرة ناعمة الحب ذهبية اللون . ثم حفنة من العدس محمر اللون . ووضع ماء نظيفا فى قصـعة كانت هناك . وأطلق سراح فيلوس . الذى كان جائعا عطشـا لكنه لم يلق بنفسه لا على الأكل ولا على الشراب . بل جال ببصره حوله بفضول . نطق الشاب ببضع كلمات . ترجمهـا له الحمام قائلين :

ـــ يسأل لماذا لا تأكل . يتساءل عما اذا كنت معتادا على وجبة من نوع آخر .

أجاب فيلوس موضحا :

ـــ هذا حق . ولكن تلك الوجبة الأخرى بادرت فأعطيتها لى ، وشبعت . انى معتاد على الحب .

انفجر الشـاب ضاحكا . وعاد الحمام يترجم اجابته من جـديد .

ـــ يقول المعلم ان كلامك حلو ، ويشكرك عليه . ولكن

الحب لا يكفى • فالغذاء أيضا ضرورى • ومعدتك الصغيرة خاوية تماما • يجب أن تأكل •

عندئذ أكل فيلوس • أكل جيدا ، ورشف بضع جرعات من الماء • ثم سأل :

ـــ لماذا لقبتموه معلما ؟

ـــ لأنه معلم القرية • وهذا المبنى الجميل الذى تراه ، أجمل المبانى هنا ، هو المدرسة •

وبعد أن نظر فيلوس الى المبنى والى المعلم ، قال :

ـــ كم هم محظوظون تلاميذك ! سيشبون رجالا صالحين . وسيحبون الانسانية •

جلس المعلم وتأمل الطائر بفضول • ثم تكلم • وأدى الحمام دور المترجم :

ـــ قال انك طائر رائع ، ولديك أفكار عميقة • ولكن لماذا لا تعرف لغتنا ، ومن أين جئت ؟

سعيدا بالسؤال ، ومحاولا أن يكتم زهوه ، قال ببساطة :

ـــ أنا يونانى •

لمعت عينا المعلم • وقال بحماس :

ـــ يونانى • فهمت الآن • اليونان بلد عظيم •

أجاب فيلوس قائلا :

ـ أوه ، كلا . انها بلد صغير وفقير . وبحسب ما رأيت فان بلادكم هى العظيمة . بسهولها التى لا حدود لها . وانهارها العريضة .

قاطعه المعلم ، وقال :

ـ انك على خطأ فى هذا الصدد ، يا طائرى الجميل . ان عظمة بلد من البلاد لا تقاس باتساع سهولها ، ولا بأى مقياس مادى آخر . انها تقاس برفعة وسمو القلب .

تقافز فيلوس فرحا ، واستطرد يقول :

ـ هذا ، يا سيدى المعلم ، كلام صائب ونبيل . ولكن بهذا المقياس أيضا فانتم بلد عظيم . انت ، على سبيل المثال ، أخذتنى بين يديك وكنت طائرا مجهولا بالنسبة لك ، ومع ذلك لم تكسر رقبتى لتأكلنى . بل على العكس ، أظهرت لى حبا . وهذا هو بلا منازع أكثر مقاييس العظمة صدقا .

تأمل المعلم هذا الكلام . ثم تمتم فى النهاية يقول :

ـ الحب ، الحب ، فى الحقيقة ، هو الشىء الأساسى . ولكن هنا ، مثلما هو الحال فى كل مكان ، يوجد الناس يعرفون ما الحب ، والناس يجهلونه . هناك عصور يزدهر فيها الحب ويسود ، وعصور أخرى يضمر ويعلوه الذبول . هناك الحروب .. و . ومن بعدها .

ازداد صوت المعلم خشونة .

ـــ ومن بعـــدها الكراهيـــة ، ويختلط القتل ذاته بأداء الواجب .

انكمش الحمام كله تحت أجنحته ، عند سماعه هذا الكلام.

قال المعلم بلهجة شرسة

ــ عندما يدخل عليك العدو ، فيا لمصيبتك اذا لم تحاربه حتى ترده مدحورا ، أو حتى تقتله كى لا يقتلك .. اذن ، أنت ترى ان الحب يموت . سوف يولد من جديد ولا شك ، ولكنه سيولد ببطء شديد ..

دب النشاط فى المعلم ، وقال :

ــ آه ! كيف يمكن التوصل الى ان يحب النـــاس جميعا الحب ، ولا يكفون عن ذلك ابدا ! هذا ما اجتهد ان أعمله فى المدرسة التى تراها هنا . هذا هو حلمى .

صاح فيلوس ، وهو يتقفز من شدة الفرح راقصا :

ــ يا سيدى المعلم . يا سيدى المعلم العزيز . لو كان هذا هو حلم معلمى وطنك جميعا ، فسوف يصبح بلا شك أعظم بلاد العالم يوما ما .

رفرفت الحمائم من حولهما فرحا . وبعد أن تأملها الشاب بابتسامة رضاء استرد هيئته الجادة كى يضيف :

ـــ ما الذى يجعلك تقول ذلك ؟ ألا يشاطرنا المعلمون فى اليونان حلمنا هذا ؟

ظل فيلوس صامتا برهة . كان يزن اجابته :

ـــ لقد تكلمت ، على ما يبدو لى ، عما تعتقده أنت . حسنا، وانى بدورى لست متأكدا ان هذا هو المثل الاعلى لكل المعلمين فى اليونان . بل واخشى ان الكثيرين منهم يعتبر ان مهمته الوحيدة ان يعلم الاولاد الكتابة .

لم يكتم المعلم ضحكته . وقال :

ـــ الامر سيان فى كل مكان . وهذا هو الحال فى وطنى أيضا . أغلب الناس لا يرون الا ما هو آنى ، ما هو ماثل امام عيونهم وان كان يخفى عنهم بقية الحقيقة . ولنبدأ فنشير الى انه يخفى عنهم الحياة الابدية ، وهى الحياة التى تمتد الى ما بعد الحياة الارضية ، ولكن لا تقلق . ما دام السلم يسود ، فسوف يوجد فى كل مكان معلمون يعلمون الحب على تلقين الكتابة .

وسأل فيلوس قلقا :

ـــ ولماذا لا يكون لدينا سلام على الدوام ؟

انتظر الحمام كله الاجابة بلهفة ، ولكن الشاب ظل صامتا . وأصر فيلوس قائلا :

ـــ انت ، يا أيهـا العلامة ، يا من تعطنى الانطباع بأنك

تعرف كل شيء ، قل لي لماذا لن يكون لدينا سلام على الدوام ؟

نهض المعلم وسار بضع خطوات ، وقد ارتسمت على وجهه الهموم :

ـ لماذا ؟ لماذا ؟ أجهل الاجابة . لا اتوصل الى تفسير . ومع ذلك فان قيم الحرب يعنى شيئا رهيبا .

قال فيلوس دهشا :

ـ ماذا ! الحرب شيء بشع رهيب ، ومع ذلك فهى أمر لا تفسير له ، حتى بالنسبة لك ! ولكن ، ألا يمكنك ان تتصور على الاقل سبب هذه الفظائع ؟

ـ كلا ، انى عاجز عن ان اتصور ذلك ، ربما لان الحرب فى المقام الاول عمل لا معقول ! ماذا أعرف ؟ ماذا أقول لك ؟ أحيانا ، اظن ان الحرب لا يريدها الا زمرة قليلة جدا من الناس ... عندما يبلغون أقصى قمم النفوذ والقوة . وكذلك الشعوب . اذن كيف يمكنك ان تضع نهاية لذلك ؟

قالت احدى الحمائم الرومانية :

ـ يجب ان يفرض نزع السلاح . يجب تحريم الاسلحة النووية .

ارتسمت على شفتى المعلم ابتسامة مريرة ، وقال :

ـ بكل تأكيد . سوف يكون ذلك رائعا ! ولكن ثمة حروبا

أخرى فظيعة تنشب أيضا باستخدام أسلحة تقليدية • مثل الغدارة ، والسيف ، والقوس ، والرمح ، كما فى العصور الغابرة •

خيم صمت خانق بعد هذا الكلام • وعتم شبح الحرب ، مثل ظل أسود ، الضوء الاخضر الذهبى الذى كان يغمر فناء المدرسة • أخذ المعلم يسير جيئة وذهابا • ثم بلهجة مباغتة مصممة قال :

ـ ان الناس الذين لا يؤمنون لا بالحب ولا بالجمال يجدون على الدوام الوسيلة التى يصنعون بها أسلحة يتحاربون بها • الجمال والحب وحدهما سوف ينقذاننا •

نطق هذه الكلمات بحرارة ، حتى بدا الجو حوله وكأن ومضة وضاءة افلتت تبدد الظل الاسود • أصبح النهار بهيجا من جديد، وأخذ الحمام يتقافز من حوله •

وعندئذ ارتفع فيلوس فى الهواء ، فجأة راسما بحركاته دوائر متراكزة ، ثم نزل منقضا ، وقد صوب رأسه فى اتجاه الارض ، وبعد ان لمسها ، كرر مرتين أخريين لعبته •

دهش المعلم كما دهش الحمام من حوله • وراح هذا الاخير يستفسر من فيلوس الذى حكى لهم عن حياته • أوضح لهم انه كل يوم ، عدا عندما تمطر السماء ، يمارس حمام السيد ايكار هذا التمرين تحت اشرافه •

وسأل المعلم :

ــ ولكن لماذا أديت هذا التمرين الآن ؟

ــ كى أعبر عن الفرحة التى حققتها لى كلامك . كان رائعا ما قلته .

صاح المعلم :

ــ احسنت ! ان الافعال أكثر بلاغة من العبارات . لكن قل لى أيضـــا . فى بلادك ، فى المدينة التى تحيا فيهـــا ، لماذا تألفون هذه اللعبة ؟

ــ لجمالها ولجسارتها . وأيضا لانها تروق لسيدنا العزيز ايكار .

سأل المعلم :

ــ وماذا يعمل السيد ايكار ؟

تردد فيلوس . كان متحيرا كيف يعترف لمعلم اجنبى ان عزيزه السيد ايكار لم يتلق أى دراسة ؟ انه تاجر شريف ماهر ، ولكن متجره متناه فى الصغر ؟

وفى النهاية ، قال :

ــ السيد ايكار ليس فى ثقافتك ، ولكنه رجل ينظر الى الحياة بحكمة ، وهو جاد ، محافظ ، يذهب بانتظام الى الكنيسة،

ويعمل بالتجارة .. يمسك محلا للبقالة ، صغير ولكنه ممون بكل ما يطلبه زبائنه ولا يبيع فيه سوى الاصناف الجيدة، وبأسعار معقولة .

لمعت عينا المعلم ، وقال :

ــ أيها الطائر الجميل ، أيها الطائر الذكى الجميل ، لا تخف، سينتصر الحب فى النهاية . وستزول الحروب . لانه اذا كان للمعلمين والتجار الايمان ذاته بالحب والجمال ، فانهم سيحققون النصر . وذلك لا بسبب هذا الايمان الرائع فحسب ، بل ولأنهم الاغلبية ، فدعاة الحروب هم الاقلية . أخبر السيد ايكار بذلك من جانبى ، وقبله من طرفى ، لاننى اعتبره أخا لى . ويمكنك ان تقول له بذلك .

صاح فيلوس ، وهو يبسط جناحيه ويرتفع فى السماء :

ــ انى اسرع ! اسرع لأنقل اليه الرسالة . شكرا على كل شىء !

رفرف الحمام الآخر بجناحيه ثم صعد الى الهواء فى اعقابه . صاح المعلم ، ملوحا بيده فى اتجاهه :

ــ كلا ، كلا ! لا تعد الى بلدك ، لم يحن الوقت لعودتك بعد . ألم تقل انك جئت لزيارة رومانيا .

رفع فيلوس صوته قائلا ، وقد علا فى السماء :

ــ سيدى المعلم ، هل تعتقد اننا نحتاج وقتــا طويلا كى نعرف بلدا ؟ ان بلدك جد قريب الى قلبى ، حتى أصبحت أحس اننا أنا وأنت قريبان ، واننى واحد منكم • دعنى أسرع لأذهب وأخبر أهــل بلدى بذلك ، خشــية ان يرتكب أولئك الذين يجهلون هذا حماقة من الحماقات ــ ســارع أنت أيضا وقل لأولئك الذين لا يعرفون ذلك من أهل بلدك • تحية ، يا أخوتى وشكرا • يا أخوتى • يا أخوتى ، انى أحبكم •

شق فيلوس الهواء بجناحيه ، وطار فى خط مستقيم كى يذهب الى اليونان حاملا هذه الرسالة البسيطة ، والعظيمة أيضا •

١٠

جمهورية الحمام

تقلب السيد ايكار فى فراشه أكثر من مرة • ثم قال لنفسه انه لن يستطيع ان ينام • كان قـد شبع من نوم حلو مجـدد للقوى • ومهما كانت الساعة ، حتى لو لم يكن النهار لقد طلع ، فقد نهض • وما الجدوى من البقاء فى السرير ؟

سوف يتمطى متكاسلا امـام النافذة المفتوحة ، ويتذوق مرة أخرى جمال المنظر الطبيعى ، ويشرب قدح القهوة • وقبل ان يذهب الى عمله : سيطلق عاليا فى السماء حمامه الحبيب • واذا سنح الوقت سيخرج فى نزهة سريعة عبر الغابة الصغيرة على التل ، التى يقوم بيته الصـغير عند طرفهـا ، ولكن ما ان فتح النافذة حتى غير برنامجه •

كان الجليد سائدا بالخارج فاكتست يانينا بزينة الاعياد •وفى مواجهته أضـحت كتلة الميتسيكيلى التى هى فى العادة خانقة وبلون الرماد ، اضحت ناصعة البياض • وعند قدميها رقدت

المدينة . أشبه بمدرجات من الرخــام الابيض وفى وسط هــذه المدرجات ، وفى مكان المنصة ، ميــاه البحيرة الزرقاء • ولكن اليوم على هذا السطح الازرق الصقيل لم تكن تنعكس فحسب سماء صافية وعميقة ، بل أيضا قمم الميتسيكيلى الشامخة الى القبة اللازوردية •

أحس السيد ايكار بالسعادة وهو يتأمل باعجاب مدينته وقد تزينت بجو الاعياد هذا • كم كانت جميلة ! جميلة جدا ! لم يكن يســل من الاعجاب بها ، على ضفاف البحيرة ، وعلى خلفية من أديم السماء ، تبدت فى خطوط دقيقة رمادية أشجار الحور وقد تعرت من أوراقها • ومن أســقف عديد من المنازل افلتت هاربة فى تموجات مثل الثعابين خطوط أخرى أكثر قتامة ، هى الادخنة التى تنفثها المداخن • كانت أشجار الحور تتحدث عن البرد والكآبة ، بينما تحدثت سحب الدخان عن المواقد والحجرات الدافئة حيث تتجمع أسر سعيدة •

راح السيد ايكار فى وقفته الى جــوار النافذة يردد قائلا «يا له من منظر ! يا له من جو ! يا لها من مدينة مدينتنا هذه !»

وقد أوحى له الدخان الصاعد فى خط أفقى بفكرة ملأته رضاء • لم يكن ثمة ريح تهب • كان الجو باردا لكنه جاف • كم كانت حمائمه ستبدع الطيران فى يوم مثل هذا ! ستصعد بقيادة فيلوس الى ارتفاع أعلى بكثير من كل يوم • وعندما سيناديها للعودة بعد ذلك ستغطس فى الهواء فى خط مســتقيم كى تأتى

لتلتقط الحمص وحبوب الذرة الناعمة التى سيلقى بها اليها !

خطرت بباله فكرة أخرى أيضا • لم تكن الشمس قد ظهرت بعد • ولو أطلق حمائمه فى الوقت المناسب فان الشمس ستغمرها بأشعتها الذهبية قبل أن تصل هذه الاشعة الى المدينة وتلمس أسقف منازلها •

سارع السيد ايكار الى ارتداء ملابسه ، ودون أن يشرب قهوته هرول الى برج الحمام • ولكنه توقف بغتة • كان يفكر فى أمر ما • نظر الى ساعته • ثم الى الممر الجبلى الذى ستبزغ الشمس منه • كان الوقت لا زال مبكرا • ولن تشرع ملكة الصباح فى الظهور الا بعد قليل • وبخطوات خفيفة لا تكاد تسمع ، عاود سيره • فما كان يحب ان يتنبه الحمام الى وجوده• فلو سمعه هذا الحمام الحبيب لعلا صخبه ،ولا ضطر ان يخرجه قبل اللحظة التى يريدها • فليقترب اذن بحذر حتى ينعم بهديلها الصباحى •

وعندما اقترب من البرج ادرك السيد ايكار ان حمامه لم يكن يهدل بل كان يتناقش ! شىء غريب ! محادثة فى مثل هذه الساعة ، والحمام لم يطرد النوم بعد من عينيه تماما ؟ أرهف السمع • وكما يفهم فيلوس لغة البشر يعرف السيد ايكار لغة الحمام • وما ان سمع ما يقال وجف قلبه •

كان المتحدث هو ايجلون الحمامة المقدامة الشابة • وكان يقول :

ـ بالنسبة لى قضى الامــر . ما ان يطلقنا طاغيتنا حتى أهرب .

سأل فيلوس بلهجة دهشة :

ـ أهو السيد ايكار من تلقبــه بالطاغية ، ذلك الرجــل الطيب الذى يحبنا كما لو كنا أولاده ؟

رد عليه ايجلون قائلا :

ـ ربما كان يحبنا . ولكن ذلك لا يمنع ان يكون طاغية .

ـ طاغية . ولكن كيف ؟

ـ بل كيف لا ؟ أهى حياة هذه التى يفرضــها علينا ؟ اننا نحيا تحت ظل حكم فاشى . حبس مؤبد ،قيود صارمة ، تدريبات فى الصباح والمساء ، تعقبها نزهة قصيرة بعد كل مرة . وهذه النزهة على الدوام فى هذا المكان هنا ، وفيما بيننا فحسب .

سأله فيلوس بصرامة :

ـ وأى نمط تحب ان تكون عليه حياتك ، يا ايجلون ؟

أجاب بحماس :

ـ أريد حياة ديمقراطية . حياة عصرية حرة ، مثــل حياة سائر الحمام غيرنا . ان أحيا تحت الأسقف والافاريز ، ان اخرج كلما حلا لى الخروج ، وأن آكل ما أجده هنا وهناك . أن أتسكع

فى أزقة الاحياء التى تروق لى ، ان أشاهد كل شيء ، وان استمتع بكل شيء : ان أخلد الى الكسل ، وان اتبع نزواتى ، هـذا ما أريد يا سيد فيلوس . نزواتى وأهوائى ، هـذا ما اطالب باحترامه . هل تفهم ؟ أو بعبارة أخرى ان أكون مواطنا حـرا وديمقراطيا ، وليس مجرد رقم مستسلم تحت نعل الفاشية

ارتجف السيد ايكار لسماعه هذا الكلام . رجل كان على الدوام ديمقراطيا وفيا طيبا يوصف بالطاغية والفاشـية ! وان يجيء نعته بذلك من قبـل أولاده ، الذين أحبهم وتعلق بهم ، وبمنتهى الحنان رعاهم وسهر عليهم ! هل كانت الدنيا على هذا الحد من الجحود ؟ ثم ماذا سـتؤول اليه رياضـتهم الجميلة الجريئة مع نظريات مثل هذه ؟ سوف تندثر ! اذن ، فى ابراج يانينا الشـهيرة يروج لنظريات خطيرة مثل هـذه ؟ يا للعنة ، ويا للخراب ! كـل شيء انقلب رأسـا على عقب ! أنها نهاية العالم !

لاحظ السيد ايكار همهمات التأييد تتصاعد من الحمام الآخر ، وانقبض قلبه . لكن فيلوس عاد الى الحديث ، فومضت بارقة أمل فى قلب السيد ايكار ، الذى أرهف السمع من جديد .

قال فيلوس :

ـ انك لا تعرف ماذا تقول ، أيها الفتى الغرير . انك تنطق سخفا وتناقض نفسك .

سأل «ايجلون بتهور :

ـ كيف ذلك ، أيها الفاشي المتطرف • وأين ترى التناقض فى كلامى ؟

ـ أنبأتنا منـــذ هنيهة أنه ما ان يتركنا السيد ايكار نخرج سوف تهرب •

ـ قلت ذلك فعلا ، وسأنفذه •

ـ اذن انت حر فى ان ترحل ، حر فى ان تغير نمط حياتك انه لا يحتفظ بك سجينا ، ذلك الرجل الشهم • اننا اذن لا نخضع لنظام استبدادى ، فاشى كما تقول •

لم يجب ايجلون • وراح بعض الوقت يفكر • ثم قال :

ـ انى اتفق معك .. لم ندمغ بعد بهـــذه الســـمة من سمات الفاشية •

ـ خبرنى اذن ، بأى سمة أخرى من سماتها دمغنا •

ـ بكل هذه التى ذكرتها لك توا •

ـ ولكن أيها الفتى ، هذه السمات التى عددتها لى لا تشير الى أى نظام فاشى •

ـ اذن خبرنى سمات أى نظام هذه ، من فضلك ؟

ـ النظام الديمقراطى •

ـــ ماذا تحكى ، يا أيها السيد المحترم فيلوس ! هل يمكنك ان تشرح لى ، كى أفهم بدورى ؟

ـــ بكل سرور . قلت لى انك تود التسكع على سجيتك ، ان تنام متى شئت ، وان تأكل كيفما حلا لك ، وان تركن الى الكسل بقدر ما يعن لك . وباختصار ، ان تحيا حسب نزواتك .

ـــ قطعا . انى ديمقراطى أصيل ، وأنوى ان أحيا وفقـا للديمقراطية .

ـــ لكن مخططك ، أيها الصديق الشاب ليس ديمقراطيا . لا أعرف بالضـبط ما هو ، لكنه على كل الاحـوال ليس من الديمقراطية فى شىء . أنها الفوضوية ، وسيادة الكسل . وجود بلا تدبير ولا هـدف ، هـذا كل مـا تريـده ، لكنه ليس الديمقراطية .

ـــ اذن ، ما الديمقراطية ، أيها الحكيم فيلوس ؟

ـــ انها بالضبط نهج الحياة الذى نحياه نحن . ان تكون حرا ، ان شئت ، ان تغير حياتك ، وان تعيد ترتيبها على نحو آخر ، ولكن اذا لم تغيرها ، فان الطاعة للنظام الذى يحكم هذه الحياة واجب ، لأن أى حياة مشتركة غير ممكنة بدون الطاعة . وفى المقام الثانى ، لابد من هدف فى الحياة . وليس من قبيل ذلك ان تعلن ان « هدفى فى الحياة ان أحيا على هواى ! » ونحن لنا هدف نبيل . هدف جد جميل حتى ان قلة من الطيور لهـا

من الحظ ان يكون لها هــدف مثله : وهو ان تؤدى كل يوم حركة باهرة وجسور تنتزع اعجاب الجميع ، سواء من الطيور أو البشر أنفسهم . وأخيرا ، ان يكفل لنا حياة رغدة ما دمنا نحقق ، فى ظل النظام والتدبير ، هدفنا . وهذه الحياة الرغدة لا يكفلها للحمام الذى يطير كالسهم السيد ايكار فحسب بل وكل مربى هذا الحمام . أكلنا وفير ، اقامتنا رغدة . تتزاوج ، ننجب أولادا ، وباختصــار نحن نحيــا تحت أفضــل النظم الديمقراطية .

خيل للسيد أيكار ان قلبه نبت له جناحان يرفرفان ولكنه كان من الحكمة ألا يسارع بالفرحة . أما زال لدى ايجلون حجج يرددها ؟

صاح ايجلون :

ـ أيها الفاشى المتطرف الذى لا ينصلح . لديك كثير من الخبرة ، بل انك سافرت الى الخارج . فينيسيا ولندن . ها هو ما حبك به طاغيتنا . أما أنا فليست لى معارفك . ولا استطيع ان اتبارى فى حوار معك . ومع ذلك ، وعلى الرغم من جهلى ، اسمح لى اقرعك حجة حاسمة . فلأزدرد مؤقتا كل ما تقول عن حياتنا . ولكن الموت . ماذا نفعل فى أمره ؟ لماذا لا تنبس عن الموت بكلمة واحدة ؟

قال فيلوس دهشا :

ـ لا أنبس عن الموت بكلمة ؟ وماذا أقول ؟

ـ يمكنك ان تقول انه فى ظل النظام الذى نخضع له . يحدث كثيرا ان يفترسنا الصقر فى السماء . يمكنك ايضا ان تقول انه يحدث عديدا من المرات حتى تنزل أسرع من حمام الجيران أو لمجرد التنافس فيما بيننا ، ان نعجز عن بسط اجنحتنا فى الوقت المناسب فتتحطم على الارض اعناقنا . ولكن من يعنيه الأمر . اننا لسنا سوى عبيد ارقاء ! ونلقى ميتة ظالمة تتوقف على مجرد أهواء طاغيتنا . أهكذا يموت الحمام الذى يحيا فى ظل نظام حر ؟

سرت بين الحمام همهمات من الهلع المختلط بالغضب .

ولكن من جديد انبعث صوت فيلوس الطلى . قال :

ـ لاحظ ، من فضلك فى المقام الاول ان ما من نظام سوف يلغى الموت . أو سيبطله أبدا . ولاحظ فى المقـام الثانى ان الحمام الآخر يموت أغلبه فى ريعان شبابه ، حتى قبل ان يعرف الحياة . مساكين ، أما يموتون جوعى مهملين صغارا فى أعشاشهم التعسة . وأما تلوى اعناقهم ما ان يشبون عن الطوق ويؤكلون . واذا أفلتوا من مصير كهذا تصرعهم بندقية صياد أو نبلة أحـد الصبيان . وأما ان تدركهم الشيخوخة فيموتون فى عزلة وبلا رعاية . ويمكنك ان تلاحظ أيضا اننا تتمتع بالتأمين الاجتماعى الى أقصى حد ، ولا نموت الا متى حانت ساعتنا . ولا شك ، ان

بعضا منا ، يكونون ضحايا مخاطر المهنة . وهو ما كنت تتحدث عنه ، ولكن أولا هذا نادر الحدوث ، وثانيا ان هذا أجمل ما يمكن مواجهته من مخاطر .

ــ كيف تعتبر هذه المخاطر المميتة أشياء جميلة ؟ هل يمكننا ان نعرف على الاقل أى جمال تجده فيها ؟

ــ أنها جميلة هذه المخاطر ، أيها الصغير ايجلون لانها مرتبطة أشد الارتباط بالشجاعة . وأنها لسعادة كبرى ألا تموت عجوزا مريضا أو مطاردا فى الأزقة من صبيان صعاليك قذرين . انها لميزة كبرى ان تموت بشجاعة ، فى خدمة هدف جميل .

انبسطت الاجنحة فى قلب السيد ايكار . لو كان بامكانه لأمسك بفيلوس ، ولربت عليه ملاطفا ، وغمره بقبلاته ، وابقاه فى حضنه . ولكن ذلك كان مستحيلا . فلم يكن يراه . كان يتخيله جالسا ، فى هدوء كاله من آلهة الأوليمب ، على عارضة من أعلى عوارض البرج . وعندما يسمع ايجلون يتحدث يغلى الدم فى عروقه فيحك الارض بمخالبه فى عصبية ، وينبرى للرد عليه .

عاد ايجلون الى الحديث فقال :

ــ ولكن قل لى اذن ! يشغل فكرك مفهوم ارستقراطى بحت . فبحسب ما تعتقده ، الحمام الاصيل هو وحده الحمام الذى يطير كالسهم ، أما غيره ، فأنت تعتبره رمما بالية !

ــ ليس هذا مفهومى على الاطلاق . اننى اعتبر رمما بالية

فحسب اولئك الذين يحيون كالمتشردين ، أى فى حالة من الحرية المطلقة . واذا كنت أقيم تفرقة فلكى أسجل ان اولئك الذين يضفون على حياتهم جمالا ويعطونها معنى أكثر عمقا ، لهم قيمة كبرى ، أرادوا ذلك أو لم يريدوه . ولا تعتقد ان ذلك لا ينطبق الا علينا . ومصداقا لذلك ، اعتبر الحمام الزاجل مخلوقات رائعة .

صاح الطائر صلب الرأس قائلا :

ــ بالطبع ، كل ما يتطلب نظاما ، وتدبيرا ، وعملا ، تضخم من شأنه . أولا تعتبر نفسك فاشيا بعد ذلك ؟ انت فاشى وأى فاشى ! انك الطائر الوحيد الذى وضع طاغيتنا فيه ثقته . وباختصار انت الرئيس هنا . وما دمت الرئيس فمن الطبيعى ان ترى كل ما حولك صالحا وجميلا . ومن الطبيعى أيضا أن تكون سعيدا .

أجاب فيلوس قائلا :

ــ من هذه الناحية ، ربما كنت بعض الشىء على حق . ولكننى سألفت نظرك على أى حال الى اننى فى هذا النظام الديمقراطى الذى هو نظامنا لم أعين رئيسا من قبل عاهلنا السيد ايكار . وانما أصبحت رئيسا بكفايتى ، وبغيرتى واجتهادى ، يبسالتى واقدامى . وانت بدورك لا تنقصك الكفاية والبسالة . اذا أردت اشحذ عقلك وقلبك ، واضغط على جناحيك كى تعطيا

أقصى ما يمكنهما من عطاء وربما أصبحت انت الرئيس والقائد .
ان الحمام الآخر ، الذى ينعم بما تسميه انت حياة حرة . ليس لهم رؤساء وأقصى ما يحدث لهم ، أن يتمكن من اخضاعهم لفترة من الوقت من كان أكثر بأسا وضراوة أما عندنا فالطريق الى الرياسة مفتوح للجميع . تعال ! جرب !

لم يكن من المناسب ، فى نظر السيد ايكار ، ان تمضى المناقشة الى أبعد من ذلك . فقد بلغت شأوا قصيا . لابد ان ايجلون المسكين حانق لبلوغه نقطة أعوزه عندها الرد .

استطلع السيد ايكار ساعته . تأمل من بعيد قمم الجبال . خلف اجرامها البيضاء العالية لاحت غاية من سنابل دقيقة ذهبية. كان هذا ايذانا بأن ملكة الكون الوهاجة تتسلق الأغوار المجهولة فى سبيل البلوغ الى سماء يانينا . لم يكن ثمة وقت يضيعه لو كان يريد ان يطلق حمامه كما يريد .

ابتعد السيد ايكار على اطراف قدميه حتى يقصى عن حمامه الظن بأنه كان هناك ، يتجسس عليهم ثم عاد ادراجه يصفر ، فتح باب البرج . تمنى لهم يوما طيبا ، كالمعتاد ، وشجعهم على الطيران بالصوت والايماءة .

ــ الى الامام ، يا اجنحتى الصغيرة ! بعيدا الى أقصى حد، يا شجعانى ! انطلقوا رأسا الى السماء ، يا سهامى . عاليا جدا ، على الدوام عاليا !

لم يكد يكمل هذه الكلمات حتى كان الحمام باجسامه الرشيقة قد خرج من البرج ، قفز ورفرف هنا وهناك قليلا ، حتى ينشط أجنحته • ثم اندفع بهجمة واحدة فى طريقه رأسا الى السماء ، بل ولم يعد السيد ايكار بعد قليل يسمع أصواتها • وبمنديله المرفوع فوق رأسه راح يلوح لها كى يرشـــدها الى مركز وجودها • مركز الوجود كله •

وجد الحمام نفسه عاليا جدا • ولكن اليوم جرت ظاهرة غريبة • فى الايام الاخرى كانوا يصعدون جميعا معا ، لا يفصل الواحد منهم عن الآخر الا أقل مسافة ، وفى المقدمة قليلا النسر الصغير الاسود بطل ابيروس ، فيلوس العزيز • أما هذا الصباح فكان فى المقدمة طائران يتسابقان ، يسبق احدهما الآخر ليعود الآخر فيسبقه • كان احدهما بطبيعة الحال فيلوس • وكان من السهل التعرف عليه ، بلونه الاســود وجســمه الممطوط أثناء طيرانه • ولكن من كان الآخر ؟ من ذا الذى يجرؤ ان ينافس فيلوس • هذا الطائر بلون الرماد • أيكون ايجلون ؟ وهل كان فيلوس يبطىء من سرعته قليلا كى يدخل الرضـــاء على قلب منافســـه ؟

كلا ! انه لم يكن يبطىء من سرعته • لو كان ذلك ما يحدث لأدراكهما الآخرون جميعا ، ولكنهم ما كانوا يلحقون بهمـــا ، وراحت المسافة التى تفصلهم عنهما تتسع شقتها • وكان هـــذا

الدليل على ان الاثنين اللذين فى المقدمة يبذلان أقصى ما فى وسعهما ، ويتسابقان .

والآن ، استقرت احدى الحمامتين المتسابقتين فى المقدمة. كانت الحمامة الرمادية تتقدم ، بينما يحاول فيلوس اللحاق بها ! على أن الشقة بينهما راحت تتزايد باستمرار ، وأيضا الشقة التى تفصلهما عن بقية الفريق .

وأوغل الحمام فى الارتفاع . مضت هيئته تصغر وهو يشق القبة اللازوردية صاعدا ، مما جعل السيد ايكار يطلق صيحة . اكتست الحمامة التى فى الطليعة بانعكاسات ذهبية ! وأصبح ريشها الرمادى مصطبغا بلون أصفر خفيف له بريق الفضة ! لقد مستها الشمس ! أعطتها قبلتها ، هناك عاليا فى قبة السماء ، وغلفتها بالذهب ! وانتشت الحمامة بهذه القبلة ، فمضت تعلو وتعلو بسرعة جنونية ، كما لو كانت تريد أن تنفرد بالاستمتاع الى حد الشبع بميزة هذه القبلات اللادنيوية .

وأخذ فيلوس يتلألأ الآن بدوره . كان مثل ابنوس أسود لامع موشى بذرات من الذهب . ثم بعد بضع ثوان كان حمام السيد ايكار يسطع بدوره . بينما لم يكن سيدها ، ولا أحد من سكان المدينة ، قد شاهد الشمس بعد . جرى السيد ايكار يأخذ السلة الصغيرة التى تحتوى الحمص وحبات الذرة . نادى الحمام وأفهمه بايماءاته ان عليه أن ينزل . وفى التو غطس حمامه، ممدود الرقبة ، مطوى الجناحين فى خطوط تكاد تكون رأسية .

وعلى الرغم من أن ايجلون كان أكثرهم ارتفاعا ، فأنه كان أول من لمس الأرض وحط عليها • ومن بعده جاء فيلوس • ومن بعدهما سائر أفراد السرب • راح الجميع يتقافزون فرحين على سيقانهم ، ولكن الوقت لم يطل بهم ، لأن السيد ايكار بدر لهم اليوم بحركة رحيبة من ساعده نصيبا مضاعفا من الحبوب • وانكب الجميع يأكلون ، بنهم مختلط بالفرحة • تابعهما السيد ايكار مبتهجا • ولكنه بنظرة ركنية راح يراقب طائره الحبيب فيلوس ، خشية أن يكون حانقا أو حزينا • ولكنه لم يكن يبدو عليه شيء من ذلك • ومع ذلك ، مضى يتابعه خلسة باتنباه شديد • رآه يقترب من ايجلون الذى كان يلتقط الحب بمنقاره • وقف فيلوس بجواره ، وأخذ يتأمله باعجاب • فى النهاية تنبه ايجلون اليه • رفع رأسه الصغير ونظر اليه متسائلا •

قال له فيلوس

ـــ أحسنت ، يا صغيرى ايجلون • كنت اليوم مثل نسر حقيقى !

فرد عليه قائلا :

ـــ أوه كلا • ليس بالضبط •

ـــ مثل نسر حقا • يمكنك أن تصدقنى • لقد انتصرت على بطل أبيروس • منذ الآن ، يجب أن تكون أنت قائدنا •

بدا الارتباك على الطائر الرمادى • وتمتم قائلا :

ـــ أنا ؟ أنا ؟

ـــ أجل . أجل ، انت أكثرنا اقداما .

اعترض ايجلون على ذلك بحمية :

ـــ لا تقل هذا ، يا فيلوس ، ولا من قبيل المداعبة . قد أكون سبقتك مـــرة . كما قد أسبقك فى مرات قادمة ، ولكن ما أهمية ذلك ! كم مرة سبقتنى أنت ؟

ـــ الى الآن كنت أسبقك . واليوم قال لى جناحاى انك سوف تسبقنى على الدوام . أو ان شئت ، على الدوام ، تقريبا . اننى أتنازل لك اذن عن مكانى ، لأن هذا عدل .

همس ايجلون بخجل :

ـــ ولكن يا أيها المبجل ، فيلوس ، كيف أحل محلك ؟ كيف يمكننى أن أصبح الرئيس ، ما دمت هذا الصباح ذاته كنت على أهبة الاستعداد لأن أتمرد ؟ وتعرف ، اننى أعلن هذه الافكار الثورية منذ امد طويل .

ـــ وماذا فى هذا ! أى حمامة شابة لم يحدث لها أن كانت فى وقت من الأوقات على مشارف التمرد على النظام الذى تفرضه ديمقراطيتنا الجميلة ؟ انه أمر طبيعى . ومن مستلزمات سنك.. وربما كان ذلك أيضا دلالة طيبة جدا .

ـــ دلالة طيبة ؟ انى لا أفهمك .

ـــ وكيف لا ؟ الشباب المفعم بالحيوية هو وحده الذى يتعذب • ودون تفكير ، يتحرق الى التمرد • أما بالنسبة لى • فانك بعد أن فجرت أقوالك وأصغيت الى ، طرت بنظام محكم، وبلغت فى طيرانك حد الاتقان • وهذا ما اعتبره دليلا كافيا على انك أهل لتحل محلى •

بدا الارتباك على ايجلون من جديد • ورد بحمية :

ـــ أما أنا فأشك فى صلاحيتى أن أكون رئيسا •

فرد عليه فيلوس :

ـــ ها هو قول يثبت انك ناضج حقا للرياسة •

بسط ايجلون جناحه الايمن ، وحك رأسه ، ثم قال :

ـــ على كل الأحوال ، فانى لا أضارعك فى المناقشة • لكن قل لى شيئا آخر • ماذا ستصبح أنت ؟

ـــ أنا ، سأنمحى ، لأن ساعتى قد حانت • واذا لم أنسحب بمحض اختيارى فذلك يعنى أننى طوال كل هذه السنين لم أكن جديرا بأن أكون رئيسكم • وسوف يؤلمنى ذلك جدا ، يا صغيرى ايجلون • أوه ! معذرة ، يا سيادة الرئيس ! سوف يؤلمنى ذلك ألما عميقا • لأننى ـــ كما ترى ـــ آمنت بجمهورية الحمام الجميلة، بل وصل بى الأمر أن قدستها • وأعرف أن ديمقراطيتنا بغير نظام داخلى ، لا يمكن أن تدوم •

احس الطائر ذو اللون الرمادى بالسعادة للتشريف الذى تلقاه . ولكن أكثر من فخاره أحس بالتقدير والاحترام للسمو الخلقى الذى أثبته فيلوس . وقد أسر قلبه أقواله وموقفه . أحس الآن قلبه جياشا بالعواطف . كيف يمكن لرئيسهم أن يتخلى عن منصب براق ، شغله طوال هذه السنين وألفه ؟

نمتم ايجلون يقول :

ـــ ولكن أنت ؛ يا سيادة الرئيس ، يا من أغرقتك الامجاد منذ عديد من السنوات : كيف يمكنك أن تتخلى عن منصب كبير مثل هذا ؟ كيف سيمكنك أن تحيا بيننا شأن أى مواطن من مواطنى جمهوريتنا ؟

ـــ سوف يمكننى ذلك ، لأننى أعتبر نفسى رئيس دولة حقا . والرئيس الحقيقى يجب أن يكون قادرا على أن يهيىء نفسه لمختلف المواقف . يجب أن يكون قادرا على أن يحيا فى كوخ كما يحيا فى قصر ...

ترجمات ودراسات للدكتور نعيم عطية
عن الأدب اليونانى الحديث

- **جسر آرتا أو الثمن الفادح :**
  مسرحية جورج تيونوكا ـ مسرحيات عالميـة ـ العدد ١٤ ـ القاهرة فى ١٥ أكتوبر ١٩٦٥ ـ قدمت على خشـــبة المسرح العالمى بالقاهرة فى نوفمبر ٦٦ من اخراج سمير العصفورى ٠

- **مختارات من الادب اليونانى المعاصر فى القصة :**
  دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ـ ١٩٦٩ ٠

- **الشعر اليونانى المعاصر :**
  المكتبه الثقافية ـ اول يناير ١٩٧٠ ـ دار الكاتب العربى ٠

- **عطيل يعود ٠ مسرحية نيقوس كازنتزاكيس :**
  المسرح العلى العدد ١٣ الكويت أول اكتوبر ١٩٧٠

- **شخصيات من الأدب اليونانى المعاصر :**
  الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٧٣ ٠

- **حلم فتاة ـ قصص من اليونان الحديثة :**
  دار الهلال أكتوبر ١٩٧٨ ٠

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٣٩٢٦/ ١٩٨٠

ISBN ٩٧٧ ٢٠١ ٨٧٦ ٤



ايفانجلوس افيروف ـ توسيتسا

● ولد عام ١٩١٠ فى اقليم تيساليا بشمال اليونان

● درس القانون والاقتصاد بجامعة لوزان السويسرية ، وحصل منها على الدكتوراه عام ١٩٣٩

● استرك فى الكفاح القومى لبلاده ضد الاحتلال الفاشى والنازى اثناء الحرب العالمية الثانية

● واصل الاشتغال بالسياسة ، وشغل عدة مناصب وزارية ، منها منصب وزير الخارجية ، ثم منصب وزير الدفاع الذى لايزال يشغله الآن • وقد وفق اثناء توليه هاتين الوزارتين الى حل كثير من المشاكل الحيوية فى بلاده •

● لم يشغله اشتغاله بالسياسة عن اهتماماته الأدبية ، وراح يكتب على الأخص القصة والرواية بنبض انسانى وقومى •

● من أعماله القصصية « مغامرات حمامة تطير كالسهم » (١٩٦٨) و «فى غابة السعادة» (١٩٧٤) و «حكايات قديمة وحديثة» (١٩٧٨) ومن أعماله الروائية «صوت الأرض» (١٩٦٤) و « أرض الألم » (١٩٦٦) و « أرض دلف » (١٩٦٨) وله مسرحية بعنوان « العودة الى ميكبنى » (١٩٧٣)

● اعترفت الأكاديمية الفرنسية بعلو المكانة الأدبية لافيروف الكاتب اليو... المحلية الى العالمية فمنحته ميد

١٥٠ قرشاً

مطابع الهيئة المصـ